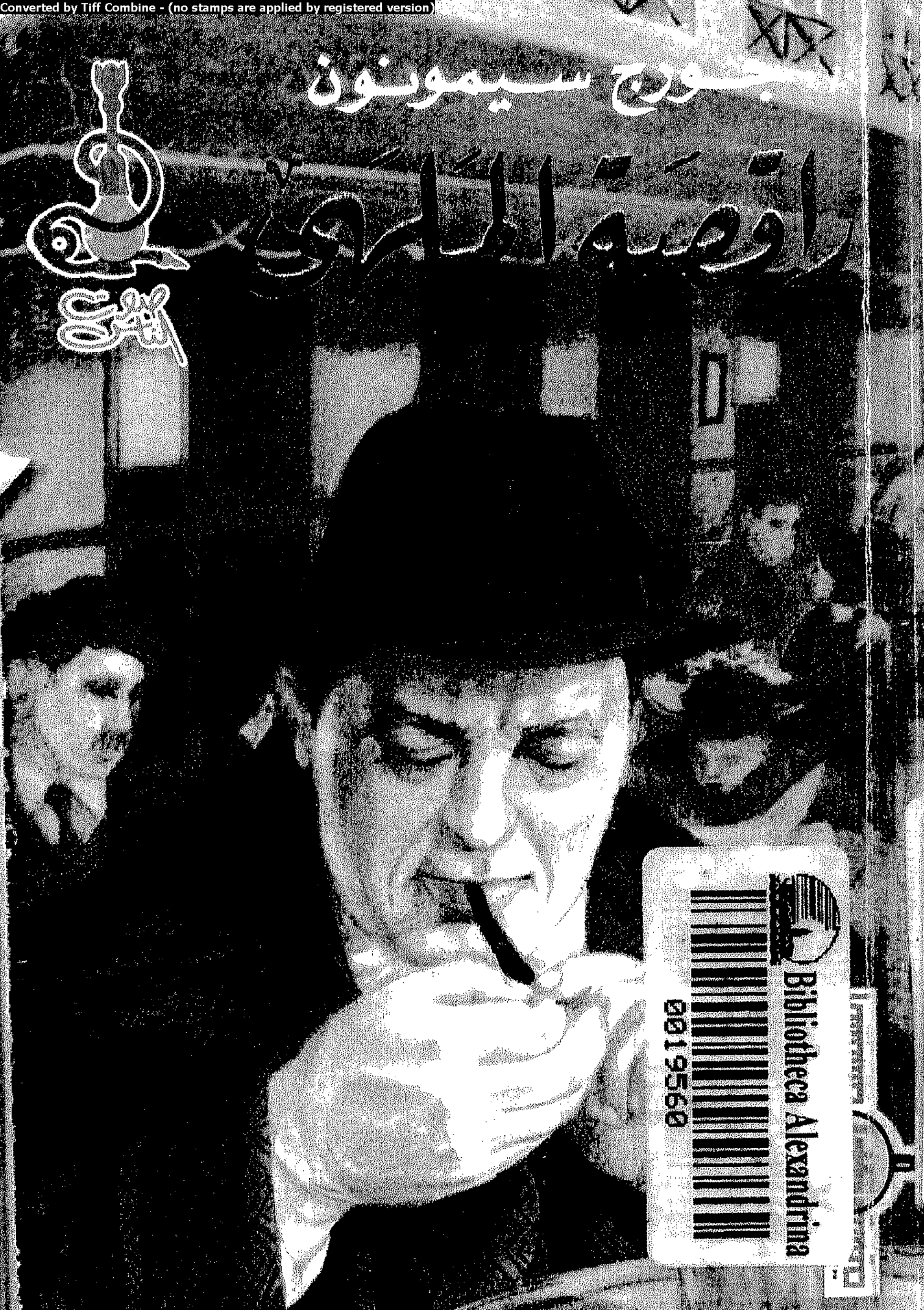

جورج سيمونون
راقصة الملهى







راقصة الملهى



جورج سيمنون

راقصة الملهى

ميغريه



LA DANSEUSE DU GAI-MOULAIN

by

GEORGES SIMENON
(MAIGRET)

ترجمة

بسام حجار

ARABIC EDITION 1993

P.O.Box:7038 - Limassol
CYPRUS
P.O.Box:113/5796 -Beirut
LEBANON

ISBN 1-85513-184-6



الطبعة الاولى: آب/اغسطس ١٩٩٣
الغلاف: تصميم رملة شماعة
رسوم: شيفورن كوريغان

المحتويات



- ١ -

آديل وصديقاها!



- «من هو هذا الرجل؟...

- «لست أدري! لم أره من قبل»، قالت أديل وهي تنفثُ دخان سيجارتها.

وأنزلت إحدى ساقيها عن الساق الأخرى، وربّتت بطرفي كفيها على الصدغين، وألقت نظرةً الى إحدى المرايا التي تغطّي جدران الصالة للتثبّتِ من أن زينتها لا تزال على حالها.

كانت تجلس على مقعد مُنجّد بالمخملِ الرمّاني، الى طاولةٍ وضعت عليها ثلاث كؤوس من شراب البورتو. كان يجلس شاب الى يسارها، وآخر الى يمينها.

- «أرجو المعذرة، يا صغيريَّ...!».

طالعتهما بابتسامة رقيقة، متواطئة، ثمّ نهضت، واجتازت الصالة، وهي تتأرجح بوركيها في اتجاه طاولة الوافد الجديد

وإذ أشار صاحب المحلّ بيده، علَت أصوات العازفين الأربعة تُصاحبُ عزفَ الآلات. إثنان فقط كانا يرقصان: امرأة تعمل في المحلّ ومعها الراقصُ المحترف.

وكانت الأجواء، ككلّ أمسية، تشيعُ انطباعاً بالخواءِ والشغور. الصالة فسيحة جدّاً يُضاعف من اتساعها انعكاس المرايا التي تغطي الجدران ولا يعترض مداها سوى عدد من المقاعد الحمراء ورخام الطاولات الأكمد.

بعد أن غادرتهما أديل، دنا الشابان أحدهما من الآخر.

- «إنها فاتنة!» قال جان شابو، أصغرهما سنّاً، بزفرةٍ أطلقها وعيناه شبه المغمضتين تتبعان مشيتها المتراقصة.

- «ويا لمزاجها الشبق!» قال صديقه دلفوس وقد اتكأ على قبضة عصا مذهّبة.

كان شابو فتىً لا يتجاوز السادسة عشرة والنصف. أما دلفوس، الذي كان أشد هزالاً ويبدو ضعيف البنية غير سويّ القسمات، فلا يتجاوز الثماني عشرة. إلّا أنهما كانا من طراز أولئك الشبّان الذين لا يتـوانون عن الاحتجاج بشدّة حيال أي تلميح أو غمز بشأن خبرتهما الطويلة في أمور الحياة وملذاتها..

- «هيه! يا فيكتور!...».

نادى شابو على النادل العابر بمحاذاته بشيءٍ من الدالّة والأُلفة.

- «أتعرف الوافدَ الجديد؟».

- «لا! لكنه طلب الشمبانيا.. ».

وأضاف فيكتور غامزاً بطرف عينه:

- «أديل تعتني به!».

وابتعد حاملاً صينيّته. صمتت الموسيقى للحظات ثمّ صدحت

موسيقى فالس خافتة. كان صاحب المحلّ واقفاً قرب طاولة الزبون الرصين يفتح قنينة الشمبانيا بنفسه ثمّ يربط فوطة بيضاء حول عنقها.

ـ «أتعتقد أن المحلّ سيقفل في ساعة متأخرة؟ سأل شابو هامساً.

ـ «في الثانية... أو الثانية والنصف فجراً، كالعادة!...».

ـ «أنحتسي كأساً أخرى؟».

كانت معالم العصبية والتوتّر بادية عليهما. وخصوصاً أصغرهما سنّاً الذي كان يحدّج مَنْ حوله على التوالي بنظراتٍ ثابتة.

كانا يراقبان أديل، قُبالتهما تقريباً، تجلسُ الى طاولة الزبون الغريب الذي طلب الشمبانيا. إنّه رجلٌ على مشارف الأربعين، أسود الشعر، داكن البشرة، كأنّه روماني أو تركي أو شيء من هذا القبيل. يرتدي قميصاً من الحرير الزهري. ويزيّن ربطة عنقه بدبوس ذي فصّ لامع.

كان الرجلُ لا يبالي كثيراً بالراقصة التي كانت تصحبُ كلامها بضحكاتٍ متتالية وقد مالت عليه. وعندما طلبت منه سيكارة، مدّ لها علبة معدنية مذهّبة دون أن يلتفت نحوها

مكث دلفوس وشابو صامتين. وراحا يرمقان الغريب بنظراتِ احتقار أو عدم اكتراث. ومع ذلك فقد كانا يعلمان جيداً أنهما شديدا الإعجاب به! فلا يفوتهما تفصيلٌ من حركاته. الطريقة التي عقد بها ربطة عنقه، قصّة الطقم وحركاته المرهفة في احتساء كأس الشمبانيا.

كان شابو يرتدي طقماً جاهزاً، وينتعلُ حذاءً سبق للإسكافيِّ أن استبدل نعله مرتين على الأقلّ؛ أما ملابس صديقه فلم تكن لتلائمَ مظهره برغم جودة القماش. ذلك أن دلفوس كان نحيلَ المنكبين، مُقعّر الصدر ويبدو جسمه في نحولِ جسم المراهق المثالي.

ـ «وافد آخر!».

كان الستار المخملي الـمُسْدَلُ خلف الباب قد رُفع قليلاً. وبدا رجلٌ وهو ينزع قبّعته ويعطيها للحاجب ويمكثُ للحظات عند الباب وهو يجيل أنظاره في أرجاء الصالة. كان ضخم الجثة، طويل القامة على شيء من السمنة، ووجهه وديع الملامح. ثمّ دخل الى الصالة لا يكترث للنادلِ الذي حاول أن يُشير عليه بركنٍ ملائم، ثمّ جلسَ الى طاولة دون أن يُعنى كثيراً باختيار موقعها.

ـ «ألديكم بيـرة؟».

ـ «لا نقدّم إلّا البيرة الانكليزية...، صِنف ستوت، شقراء واسكتلندية؟...».

وهزّ الرجلُ كتفيه مُشيراً بذلك الى أن الأمر سيّان لديه

ولم يُضفِ دخول الوافد الجديد أي تغيير ملموس على أجواء الصالة الرتيبة، كما هي الحالُ في كلّ ليلة: رجل وامرأة يرقصان. والجاز الذي يتناهى خافتاً ورتيباً بدا وكأنّه جزء من سكون المكان. أمـا ناحية البار فقد جلس زبون متأنق وقد انهمك بلعبة «بوكر» ثنائية مع صاحب المحلّ. ثم أديل ورفيقها الذي لا يكترث لها.

إنها أجواء ملهى ليلي في بلدة صغيرة.

في تلك الأثناء جاء ثلاثة رجال وبدا أن السكر قد نال منهم وقفوا

عند الستار ورفعوه قليلاً. فهرع صاحب المحلّ لاستقبالهم، وبذل العازفون ما في وسعهم لاجتذابهم بلحنٍ صاخب ومفاجيء ولكنهم سرعان ما غادروا وسمعت ضحكاتهم مجلجلةً وهم يبتعدون.

كان الوقتُ ينقضي بطيئاً ويستبدُّ السأم بشابو ودلفوس. وبدا الإرهاق على ملامحهما فامتقع وجهاهما وبرزت دوائر الازرقاق حول أجفانهما.

ـ «أتعتقد، هيّا قل لي؟» سأل شابو هامساً، فلم يسمع رفيقه، لكنّه خمّن السؤال.

لم يجب. فقط طقطقة الأصابع على رخام الطاولة.

كانت أديل التي مالت بجسمها على كتف الغريب تغمزُ صديقيها الشابين بين الحين والآخر دون أن تبدّل شيئاً من غنجها وتكلّفها.

ـ «فيكتور!».

ـ «أتغادران الآن؟ .. موعد آخر؟...».

وكلّما بالغت أديل في غنجها ازداد الرجلُ تجهّماً، ربّما بسبب الإثارة.

ـ «ندفع غداً يا فيكتور، مع الباقي! لا نحمل الآن قطعاً نقدية صغيرة...».

ـ «حسناً أيّها السادة! عمتما مساءً!.. أتخرجان من هنا؟..».

لم يكن الشابان ثملين. ومع ذلك خرجا من الصالة كما يخرج الهارب من كابوس، دون أن يريا شيئاً.

للهى الغيه مولان بابان. الباب الرئيسي الذي يفضي الى شارع

«بودوره. ومنه يدخل الزبائن ويخرجون. ولكن بعد الساعة الثانية فجـراً، أي في الوقت الذي ينبغي أن يكـون الملهى مقفلاً حسب تعليمات الشرطة، يستخدم الزبائن باباً خلفياً يُفضي الى زقاق ضيق معتم ومقفر.

اجتاز شابو ودلفوس الصالة، ومرّا من أمام طاولة الغريب، ردّا تحية صاحب المحلّ بأحسن منها، ودفعا باب المغاسل. وهناك مكثا لثوانٍ دون أن يلتفت أحدهما نحو الآخر.

ـ «إني خائف...» تمتم شابو كان يرى نفسه في مرآة بيضوية الشكل. وكان الجاز المكتوم يتناهى الى مسامعهما.

ـ «هيّا، بسرعة!» قال دلفوس وقد فتح باباً يفضي الى سلّم أسود حيث تسيطر طراوة رطبة.

كان ذلك مدخل القبو. درجات السلّم من الآجرّ. ومن الأسفل تنبعث رائحة حرّيفة لبقايا البيرة والنبيذ.

ـ «ماذا لو جاء أحدٌ ما!».

كاد شابو أن يتعثر لأن الباب انغلق بحركة ذاتية وحجب النور فجأة. تلمست يداه الجدران المكسوة بملح البارود. لامسه جسمٌ غريب فارتعدت فرائصه لكنّه سرعان ما أدرك أنّه صديقه.

ـ «لا تحرّك ساكناً!»، قال بلهجة أمر.

كانت المـوسيقى غير مسمـوعـة. ولكن يمكن للأذن أن تخمّن إيقـاعها. إذ ترتجّ الصناديق الضخمة بجلبة تصاحبه. كان ذلك مجرّد إيقاع يتردّد في الأجواء ويذكر بالصالة وبمقاعدها الحمراء،

وبـالكؤوس التي تُرفع للأنخاب والمرأة ذات الرداء الزهري التي تراقص رفيقها المتأنق في طقمه السموكنغ

كان القبـو يُشيـع إحساساً بالبرودة. وأحسّ شابو بالرطوبة تسري في أوصاله وكان عليه أن يتمالك نفسه عن العُطاس. تحسس رقبته الباردة وكانت أنفاس دلفوس المتلاحقة تتناهى اليه حاملةً عبق التبغ البارد

دخل أحدهم الى حجرة المغاسل. وفُتح صنبور المياه. ثمّ سمعت قرقعة قطعة نقدية تُرمى في الصحن.

وكان هناك ايضاً تكتكة سماعة في جيب دلفوس.

ـ «أتعتقد أنه يمكن فتحه؟...».

قرصه رفيقه في ذراعه ليُسكته. وكانت أصابعه باردة.

في الطبقة العليا لا بدّ أن صاحبَ المحلّ قد بدأ ينظر الى الساعة كلّ دقيقـة. فعندما تكون الصالة مزدحمة بالرواد وصخبهم كان لا يُبالي كثيراً بتجاوز الساعة القانونيّة وبما قد يرتّبه عليه ذلك من مضايقات الشرطة. ولكن عندما تكون الصالة شبه مقفرة يُصبح فجأةً ملتزماً بالتعليمات.

ـ «أيهـا السـادة، إنهـا ساعـة الاقفـال!... إنها الثانية بعد منتصف الليل!».

كان الشابان في الأسفل لا يسمعان شيئاً من كلّ هذا، ولكن في استطاعتهما أن يُخمّنا مجريات الأمور لحظة بلحظة. أنهى فيكتور جمع الفواتير وجلس بجانب صاحب المحلّ إلى البار مُنهمكاً في اتمام حساباته، فيما كان العازفون يعيدون آلاتهم الى عُلبها، كما عمد

أحد الخدم الى تغطية الصندوق بنسيج حريري أخضر

خادم آخر، يُدعى جوزيف، راح يكدّس الكراسي فوق الطاولات ويجمع عنها منافض السجائر.

- «إنها ساعة الإقفال، أيّها السادة!... هيّا يا أديل!... فلنسرع قليلاً!...».

كان الحانيّ رجلاً إيطالياً قويّ البنية أمضى سنيّ عمره في العملِ كنادلٍ في بارات وفنادق كان ونيس وبياريتس وباريس.

وقع خطئٌ في حجرة المغاسل. لقد أوصد الباب الذي يفضي الى الزقاق. ويدير المفتاح فيه دورةً واحدة دون أن ينزعه.

ألن يوصد باب القبو، على جاري عادته، أو على الأقل، يُلقي نظرةً خاطفة على موجوداته؟ للحظات لا تبدر منه حركة. لا بدّ أنّه انهمك بإصلاح مفرق شعره أمام المرآة. يسعل. ثمّ يسمع صرير باب الصالة.

ما هي إلّا خمس دقائق وينتهي كلّ شيء. يعمدُ الإيطالي في أثنائها، وقد مكث وحيداً بعد أن غادر الجميع، الى إسدالِ الستار الحديدي أمام الواجهة وخرج الى الشارع قبل أن يحكم إقفال المخرج الأخير.

والحالُ أنّ الايطالي لا يأخذ معه كلّ موجودات الصندوق. يكتفي بحمل الأوراق النقدية من فئة الألف فرنك. أما الباقي فيدعه في دُرج البار الذي يُمكن فتحه بضربةِ سكين.

أطفئت كلّ المصابيح.

*

* *

ـ «تعال!... همس صوتُ دلفوس».

ـ «ليس بعد... انتظر...».

لقد أصبحنا وحيدين في المبنى بأكمله ومع ذلك لا يزالان يتكلمان بصوتٍ خفيض. لا يستطيع أحدهما أن يرى الآخر. ويشعر كلٌّ منهما أنه ممتقع الوجه، مشدود القسمات، وقد يبّس الجفافُ شفتيه.

ـ «ماذا لو أنّ أحداً منهم لا يزال هنا؟».

ـ «أوتحسب أنني شعرتُ بالخوف يوم سطوت على خزنة والدي؟».

وبدا دلفوس عدوانياً متوعّداً.

ـ «قد لا نجد شيئاً في الدُرج».

أشبه بدوار. يشعر شابو بتوعّكِ مَنْ أفرطَ في الشراب. فبعد أن دخل الى هذا القبو لم يعد يمتلك الجرأة على الخروج منه. لا بل من شأنه أن يتهالك فوق درجات السلّم ويجهش في البكاء.

ـ «هيّا بنا!...».

ـ «انتظر! ربّما عاد أدراجه...».

انقضت خمس دقائق. ثمّ خمسٌ أخرى لأنّ شابو يُحاول جاهداً

كسبَ الوقت. ينتبه الى أن سيور حذائه محلولة فيربطها دون أن يرى شيئاً لأنه يخشى الوقوع والتسبُّب في جلبةٍ ما.

ـ «لقد حَسبتكَ أقلّ جبناً .. هيا! تقدّمني...»

ذلك أن دلفوس لا يريد أن يكون أوَّل من يخرج. ويدفع رفيقه بيديه المرتجفتين. باب القبو مفتوح. قطرات ماء تتسرب من صنبور في حجرة المغاسل وتفوح منها رائحة الصابون والمطهّرات.

يعلم شابو أن الباب الآخر، ذاك الذي يفضي الى الصالة، سيحدثُ صريراً. يتوقع هذا الصرير. ومع ذلك تجمّدت أوصاله.

في العتمة يبدو المكانُ فسيحاً كأنّه كاتدرائية. شعورٌ فسيح. وما زالت أنابيب التدفئة تبثُّ دفقاتٍ من الحرارة الباهتة.

ـ «ضوء!...» همس شابو.

ويُشعل دلفوس ثقابة. يتوقفان قليلاً لاسترداد أنفاسهما وتقدير المسافة التي ينبغي عليهما اجتيازها. فجأةً تسقط الثقابة فيما يُطلق دلفوس صرخةً مدوية ويندفع في اتجاه باب المغاسل. لا يهتدي في العتمة اليه. فيتراجع الى الوراء ويرتطم بشابو.

ـ «بسرعة، هيّا!... لنغادر!...»

ويبدا كلامه أقرب الى حشرجة.

شابو، هو أيضاً، لمح شيئاً ما. إلاّ أنّه لم يدرك ما هو... كأنها جثة ممدّدة على الأرض، قرب البار... شعر أسود كالح...

أصبحا عاجزين عن الحركة. علبة الثقاب على الأرض، ولكنهما لا يريانها.

ـ «علبة الثقاب! ...».

ـ «لقد فقدتها...».

يرتطم أحدهما بكرسيّ. والآخر يسأل

ـ «أهذا أنت؟...».

ـ «من هنا!.. لقد اهتديت الى الباب...».

والماء يتسرّب من الصنبور. وصوت الماء المنساب. انها الخطوة الأولى نحو الخلاص.

ـ «ماذا لو أشعلنا النور؟».

ـ «أجُننت؟...».

الأيدي تتلمّس، تبحث عن القفل.

ـ «انه قاسٍ ...».

وقع خطى في الشارع. فيمكثان بلا حراك. ينتظران. يسمعان أطراف حديث:

ـ «... أنا أزعمُ أن انكلترا لو لم...».

تبتعد الأصوات. ربّما كان العابران دركيّين يناقشان بعض الأمور السياسيّة.

ـ «هلاّ فتحت؟».

ولكن دلفوس لم يعد قادراً على الاتيان بأي حركة. فقد أسند ظهره الى الباب ووضع يديه فوق صدره اللاهث.

ـ «... لقد كان فاغر الفم...» قال متلعثماً.

يفتح المزلاج. الهواء الطلق. انعكاسات مصباح بلدي فوق بلاط الزقاق. تستبدّ بهما الرغبة في الركض. ولا يفكّران حتّى في إقفال الباب.

ولكن هناك، عند المنعطف يبدأ شارع بون دافروي حيث يُصادفان بعض المارّة. لا يجرؤ أحدهما على النظر الى الآخر. ويشعر شابو بأن جسده أصبح فارغاً وأنه يؤدّي حركاتٍ رخوة في عالمٍ مصنوعٍ من القطن. حتى الأصوات الخارجيّة تتناهى إليه وكأنها تصدر من مكانٍ بعيد.

ـ «اتعتقد أنه ميت؟... إنه التركي؟».

ـ «هو بالذات!... لقد عرفته... فمه الفاغر... وعينه...».

ـ «ماذا تقصد؟».

ـ «عين مفتوحة والأخرى مُغمضة».

وفي صيحةِ غيظ:

ـ «أشعر بالعطش!».

إنهما يسيران في شارع بون دافروي. كلّ المقاهي مقفلة. والحانوت الوحيد الذي لم يقفل أبوابه بعد هو محلّ للأطعمة المقلية حيث يجد الراغب كوباً من البيرة، أو طبقاً من بلح البحر أو فتائل الرنكة بالخلّ بالإضافة الى البطاطا المقلية.

ـ «أتقصد هذا المكان؟».

الطبّاخ في ملابسه البيضاء يوقد النار في فرنه وامرأة تأكل في ركنٍ وتطالع الصديقين بابتسامة زاخرة بالوعود.

- «بيرة!... وبطاطا مقلية!... وطبقاً من بلح البحر!...».

وبعـد أن يلتهما الوجبة الأولى يطلبان المزيد. إنهما جائعان. وجوعهما يفوق التصوّر. لقد احتسى كلٌّ منهما على التوالي أربعة أكوابٍ من البيرة!

لا ينظر أحدهما الى الآخر. ويأكلان بنهم. وفي الخارج، يسودُ الظلام وحفنة من المارّة تسير بخطى عاجلة.

«كم الحساب أيّها النادل؟».

رعبٌ جديد. أيملكان من المالِ ما يكفي ثمناً لعشائهما؟

«... سبعـة زائـد اثنين زائد خمسين سنتيماً زائد ثلاثة زائد ستين سنتيماً زائد... ثمانية عشر فرنكاً وخمسةٍ وسبعين سنتيماً!...».

وبالكاد تبقى لديهما فرنك واحد للبقشيش!

الشوارع. أبواب الحوانيت المقفلة. مصابيح الإنارة العمومية ومن البعيد صدى خطوات دورية الحرّاس الليليين.

اجتاز الشابان الجسر فوق نهر «الـمُوزْ».

دلفـوس يلزم الصمت، أنظاره ثابتة أمامه، شارد الذهن عمّا لقياه من أحداث فلم ينتبه الى كلام صديقه الذي يجهد في محادثته.

أمّا شابو، خشية أن يبقى وحيداً ورغبةً منه في إطالة أمدِ الرفقة المطمئنة، فيتجه نحو باب أحد المنازل الباذخة، لا بل أحد أجمل بيوت الناحية.

ـ «هلاّ رافقتني لبعض الوقت...» سأل مُستجدياً

ـ «لا... إنني متوعك...».

إنه التعبير الملائم. التوعّك أصابهما معاً. وبرغم أن شابو لم يلمح الجثة إلاّ لثوانٍ، إلاّ أن الصور المرعبة لم تفارق مخيّلته.

ـ «إنه التركي، أليس كذلك؟».

يسميّانه التركي لأنهما لا يعرفان جنسيّته بالضبط. دلفوس لا يجيب. أدخل مفتاحه في قفل الباب مُحاذراً أن يحدث أي جلبة. وسرعان ما يُفتح الباب على رواق عريض مزيّن بمشجبٍ من النحاس.

ـ «إلى الغد...».

ـ «في «البيليكان»؟...».

إلاّ أن الباب أُغلقَ قبلَ أن يحظى بالجواب. وها أصبحت الدوّامة على أشدّها. الوصول، بأي ثمن، إلى المنزل والاستلقاء فوق سريره! وعندها ألا تنتهي هذه الحكاية فصولاً؟

وهوذا شابو يقف وحيداً في الناحية المقفرة، يحثّ الخطى، يهرع، يتريّث عند المنعطفات متردداً ثمّ ينطلق راكضاً كالمعتوه. ساحة الكونغريه، يهرب من الأشجار. ثم يبطىء السير لأنه رأى أحد المارّة من بعيد. إلاّ أن العابر المجهول يسلك اتجاهاً مختلفاً.

شارع لالوا. منازل من طبقة واحدة. عتبة.

يبحث جان شابو عن مفتاحه، يفتح، يدير مفتاح الإضاءة،

ويسير في اتجاه المطبخ ذي الباب الزجاجي، حيث لم تخمد نيران الموقد كلياً.

ينبغي أن يعود أدراجه لأنه نسي أن يُغلق باب المدخل. البيت دافىء. ويـرى ورقة فوق غطاء الطاولة المشمّع كُتبت عليها بالقلم الرصاص هذه العبارات:

ستجـد قطعة لحم في خزانة المؤن وقطعةً من الكعكِ المحلّى في خزانة الحائط. عم مساءً.

الوالد.

يُجيلُ جان أنظاره في الأرجاء من حوله بشيءٍ من الذهول، ثمَّ يفتح الخزانة فيرى قطعة اللحم التي أثارت لديه على الفور شعوراً بالغثيان. وفوق الخزانة أصّ نبات صغير لشتلةٍ خضراء أشبه باللبّين.

ذلك أن العمة ماريا قد جاءت! وعندما تأتي، تحمل دائماً معها نبتـةً ما. فمنـزلهـا عند مرفأ سان ليونار يغصّ بأنواع النباتات المختلفة. ولا تكفّ، علاوة على ذلك، عن اسداء النصح حول كيفية رعايتها والاعتناء بها.

أطفأ جان النور. يصعد السلّم بعد أن خلع نعليه. ويجتاز رواق الطبقة الأولى أمام أبواب غرف النوم.

في الطبقة الثانية غرف واطئة السقف والرطوبة تنز من السطح.

وحين وصل الى قرص الدرج سمع طقطقة سرير. لقد استيقظ أحدهما. والده أو والدته. يفتح الباب.

لكنّ صوتاً يتناهى اليه بعيداً ومكتوماً.

ـ «أهذا أنت يا جان؟...».

هيّا! ينبغي أن يلقي تحية المساء على والديه. فيدخل الى غرفتهما: هواؤها رطبٌ مفعمٌ بأنفاس النائمين. إذ لا بدّ أنهما ناما منذ ساعات طويلة.

ـ «لقد تأخّرت، أليس كذلك؟...».

ـ «ليس كثيراً.. ».

ـ «كان ينبغي...».

لا! لا يجرؤ والده على تأنيبه. أو ربّما أحسَّ أن كلامه لن يجدي نفعاً.

ـ «عم مساءً، يا بني...».

ينحني جان ويُقبل جبيناً رطباً.

ـ «وجهك بارد... أنت...».

ـ «الطقس بارد قليلاً...».

ـ «هل وجدت قطعة اللحم؟... العمّة ماريا هي التي أحضرت الكعك المحلّى...».

ـ «لقد أكلت في الخارج، برفقة أصدقاء.. ».

تستدير أمّه دون أنّ تستيقظ تماماً وقد غطى شعرها الوسادة.

ـ «عم مساءً...».

يشعر أنه على حافة الانهيار. يدخل الى غرفته ولا يشعل النور.

يرمي سترته كيفما اتفق ويستلقي على سريره ويدسّ رأسه في الوسادة.

انه لا يبكي. لما استطاع أن يبكي بأية حال. يحاول استرداد أنفاسه. أطرافه ترتجف بقوة ورعشات عنيفة ألـمّت بأوصاله كأنه أصيب بحمّى مفاجئة.

كم يودّ أن لا ترجَّ رعشته مفاصل السرير. وكم يـودّ أن يتمالك نوبة الفواق التي يشعر انها تطبق على خناقه. ذلك أنّه يدرك جيّداً أن والده النائم في الغرفة المجاورة، يُغالبُ نعاسه ويُصغي بانتباه.

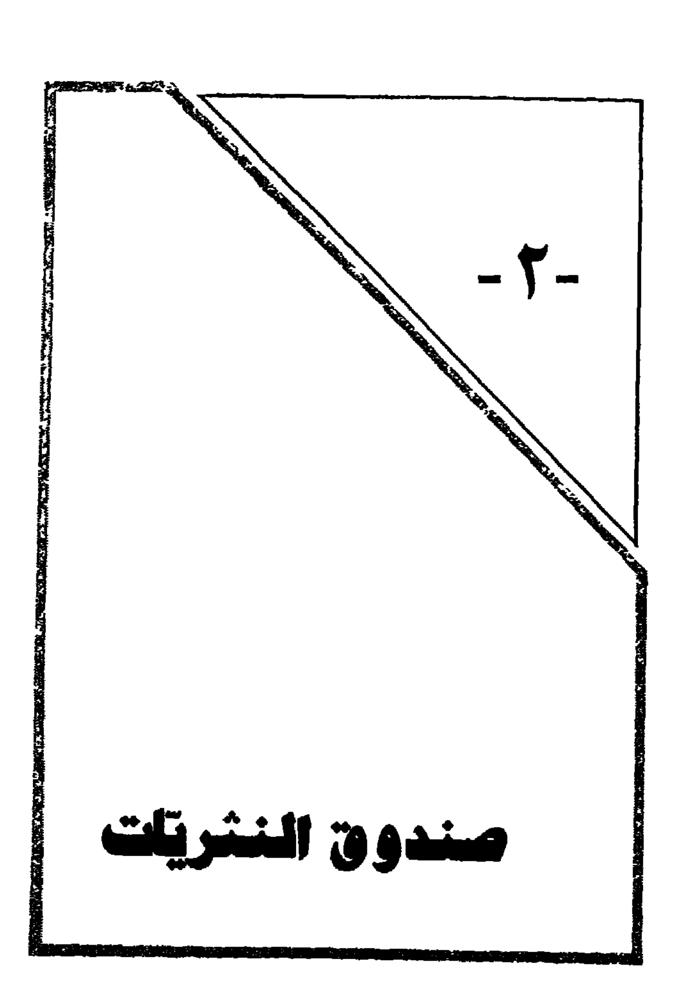
صورة واحـدة تتعـاظم في رأسه، وكلمة واحدة، تنتفخ وتتخذ حجماً مرعباً وتكادُ تسحقه تحت ثقلها: التركي!..

العالم يدور، ويثقل ويرمي بوطأته عليه ويعتصره من كلٍّ صوب حتّى يتسرب شعاع الشمس من كوة السقف فيما والد جان الواقف قرب السرير يَهْمِسُ بنبرةٍ يريدُ ألاّ تكون شديدة القسوة:

- «ينبغي ألاّ تفعل ذلك يا بني!... لقد أفرطت في الشراب، أليس كذلك؟... حتّى أنك لم تخلع ثيابك!...

وروائـح القهـوة والبيض المقـلي بالسمن تتصاعد من الطبقة السفلى. شاحنات تعبر الشارع. أبواب تصفق. وديك يصيح.




-٢-
صندوق النثريات



أبعد جان شابو الذي جلس مُرتفقاً الطاولة، طبقه بحركة استياء وراح يُحدّق شاخصاً في الفناء الخارجي الضيق الذي يُرى من خلال تخاريم الستائر المسدلة، والذي تعكسُ جدرانه المطلية بالكلس ألَقَ الصباح المشمس.

كان والده يراقبه خلسةً دون أن يكفَّ عن تناول طعامه محاولاً أن يختلق موضوعاً للمحادثة.

ـ «ألا تدري ما مقدار الصحّة في الأقوال التي تتردّد في هذه الأونة والتي تزعم أنّ العمارة الضخمة في شارع فيرونستريه ستُعرض للبيع؟ لقد سألني أحدهم بالأمس في المكتب حول صحّة هذا الأمر. ربّما ينبغي أن تسأل...».

إلّا أن السيّدة شابو التي كانت هي أيضاً تراقبُ ابنها دون أن تكفَّ عن تحضير الخضار للحساء، قاطعت الأب قائلةً:

ـ «ما الأمر، لماذا لا تأكل؟».

ـ «لستُ جائعاً يا أمي».

ـ «لأنك أفرطت في الشراب ليلة أمس، أراهنك على ذلك! هيا اعترف!».

ـ «لا».

ـ «أوتحسب أن الأمر يخفى علينا! عيناك معتكرتان وحمراوان! وسحنتك بلون الورق الممضوغ! لذلك ينبغي أن نبذل المستحيل لكي تستعيد قواك! هيّا! كُل البيض على الأقل...».

وما كان جان ليستطيع ابتلاع لقمة واحدة ولو مقابل كلّ ثروات العالم. كان يشعر بضيقٍ يعتصر صدره. أمّا أجواء المنزل الوادعة وروائح السمن والقهوة والجدار الأبيض والحساء الذي يغلي على النار، كل هذه الأشياء كانت تثير لديه إحساساً أقرب الى الغثيان.

أراد أن يغادر المنزل بسرعة، مُتلهّفاً لمعرفة الحقيقة وكان يرتعد لكلّ جلبة تتناهى اليه من الشارع.

ـ «يجب أن أغادر».

ـ «لا يزال الوقت باكراً. لقد كنت برفقة دلفوس، ليلة أمس، أليس كذلك؟.. ولماذا لا يأتي الآن ليصحبك! .. انه ولدٌ متبطل لأنه من أسرة ثرية!... رذيل!... وليس مجبراً على النهوض باكراً للذهاب الى عمله!».

كان السيّد شابو صامتاً يتناول طعامه مُطرقاً لكي لا يضطر إلى الاشتراك في نقاشهما. هبط أحد نزلاء الطبقة الأولى، إنه طالب بولندي، واجتاز الردهة مباشرة الى الشارع في طريقه الى الجامعة. وسمع آخر وهو يرتدي ملابسه في الغرفة التي تقع مباشرة فوق المطبخ.

ـ «سترى جيداً يا جان أن العواقب ستكون وخيمة! إسأل والدك إذا كان يفرط في الشراب في سنّك!».

وبـالفعـل كانت عينـا جان شابـو معتكرتين حمراوين، مُتعب القسمات وبدت بثرة حمراء في أعلى جبينه.

ـ «إني ذاهب!» ردّد قائلاً بعد أن نظر الى ساعته.

وفي تلك اللحـظة بالذات سمعت ضربات خفيفة على صندوق البريد المثبت على باب المدخل. وكانت تلك طريقة المقرّبين في قرع البـاب، أمـا الجرس فيستخدمه الغرباء. هرع جان لفتح الباب فطالعه دلفوس الذي سأله:

ـ «ألن تأتـي؟».

ـ «بـلى... أمهلني قليلاً لأحضر قبّعتي...».

ـ «أدخل يا دلفوس! صرخت السيّدة شابو من المطبخ. في الوقت المناسب، لقد كُنت أقول لجان إنّ الأوان قد حان لتكفّا عن هذه الأمور! إنه يفسد صحته! أن تكون مُصّراً على السهر كلّ ليلة أمر لا يعني سوى والديك. أمّا جان...».

وقف دلفوس بقامته المديدة الناحلة وسحنته الأشد شحوباً من سحنة شابو، مُطرقاً وقد افترّت شفتاه عن ابتسامة ضيق.

ـ «لا يستطيع جان إلّا أن يعمل! فنحن لا نملك ثروة! وأعتقد أنك على قدر من الذكاء الكافي لتفهم ولذلك أطلب إليك أن تدعه وشأنه».

ـ «هلّا ذهبنا؟...» همس جان الذي أحرجه كلام أمّه.

ـ «أقسم لك يا سيّدتي أننا...» غمغم دلفوس.

ـ «في أي ساعة عدتما الى المنزل في الليلة الفائتة؟».

ـ «لا أعلم... ربّما عند الواحدة بعد منتصف الليل.. ».

- «لقد أقرّ جان أن الساعة كانت قد تجاوزت الثانية فجراً!».

- «لقد حان موعد ذهابي الى المكتب يا أمّاه...».

كان قد اعتمر قبعته ودفع دلفوس أمامه الى أن غادرا الرواق. وعندئذٍ نهض السيد شابو بدوره، وارتدى معطفه.

في الخارج كان الشارع كسائر شوارع مدينة «لييج» في مثل ذلك الوقت من أوقات الصباح، مزدحماً بربّاتِ البيوت اللواتي يغسلن الرصيف أمام أبوابهن بالمياه المتدفقة، وبعربات الخضار والفحم المتوقفة أمام البيوت، فيما تتناهى أصوات الباعة الجوّالين من بعيد، تتردّد من أقصى الناحيةِ الى أقصاها.

- «ماذا حدث؟...».

كان الشابان قد انعطفا عند ناصية الشارع، وأصبح بامكانهما أن يعبّرا عن قلقهما.

- «لا شيء!... صحيفة هذا الصباح لم تذكر شيئاً عن الأمر!... ربّما لم يعثر بعدُ على...».

كان دلفوس يعتمر طاقية طالب عريضة. ففي تلك الساعة من كلّ يوم كانت أعداد كبيرة من الطلاّب تسلك الطريق نفسه في اتجاه الجامعة، كأنهم يجتازون جسر نهر «المُوْز» في موكبٍ حاشد.

- «والدتي غاضبة جدّاً... وتضع اللوم عليكَ أنت بالذات...».

كانا يجتازان ساحة السوق، يتسلّلان بين سلال الخضار والفاكهة ويدوسان في طريقهما أوراق الكرنب والخسّ وكانت نظرات جان ثابتة.

ـ «ولكن قُل!... بشأن المال؟... لقد أصبحنا في الخامسَ عشرَ من...».

ثمَّ انتقلا الى الرصيف المقابل لأنّهما عبرا من أمام بائع السكاكر الذي يدينان له بنحو خمسين فرنكاً.

ـ «أعلم جيّداً... لقد تفقدت هذا الصباح محفظة والدي... ولم أجد فيها سوى أوراقٍ نقدية من فئات كبيرة...».

وأردف دلفوس هامساً:

ـ «لا تُشغل بالك... بعد قليل سأقصد متجر عمّي، في شارع ليوبول... فهم في العادةِ يتركونني وحيداً في المتجر لبعض الوقت...».

كان جان يعرف المتجر جيّداً، انه أكبر متاجر الشوكولاتة في «ليبج». وطالعته صورة صديقه وهو يدسُّ يده في دُرج الغلّة.

ـ «متى أراك؟».

ـ «سأنتظرك عند الظهر».

كانا قد وصلا الى عتبة مكتب لويست، الكاتب بالعدل، حيث يعمل شابو. وتصافحا دون أن ينظر أحدهما الى الآخر، وأحسّ جان بشيء من الضيق كأن مصافحة صديقه لم تكن هي المعتادة.

والحقيقة انهما أصبحا الآن شريكين في جُرم واحد!

كان جان يستخدم طاولة في الردهة الخلفية من مكتب لويست. إذ يقتصر عمله، وهو الأحدث عهداً من بين الموظفين، على لصق

الطوابع البريدية على المغلفات وتنسيق البريد والقيام بالمشتروات المختلفة من سوق المدينة.

وفي ذلك الصباح كان يعمل صامتاً، لا يلتفت الى أحد، كأنه يرغب في أن لا يثير انتباه أحد، خصوصاً مساعد الكاتب الأوّل، وهو رجل على مشارف الخمسين، صارم السحنة والمظهر، ويعمل تحت إشرافه مباشرة.

عند الحادية عشرة كانت الأمور لا تزال تسير على جاري عادتها، ولكن قبل موعد الظهر بقليل دنا منه مساعد الكاتب الأوّل.

ـ «ألديك حسابات صندوق النثريات، يا شابو؟».

وكان شابو، منذ ساعات الصباح الأولى، يحاول اختلاق جوابٍ مقنع فأسمعه إيّاه عن ظهر قلب دون أن يجرؤ على النظر اليه.

ـ «أعذرني يا سيد هوسي، لقد بدّلت ملابسي هذا الصباح ونسيت دفتر الحسابات والمال في البيت. سأعطيك الحسابات بعد الظهر...»

كان ممتقع اللون، الأمر الذي جعل مساعد الكاتب يسأله بشيءٍ من الاستهجان.

ـ «هل أنت مريض؟».

ـ «لا... لا أدري... ربّما كنتُ متوعكاً بعض الشيء...».

وصندوق النثريات، كان عبارة عن حساب خاص في المكتب، يشمل المصاريف الضرورية للطوابع البريديةً والبريد المضمون، وكلّ المصاريف اليومية النثرية، وكان جان يؤتمن على مبلغٍ معين من المال مرتين في الشهر، في الخامس عشر والثلاثين من كلّ شهر،

على أن يدوّن كلّ المصاريف الطارئة في دفتر خاص

كان الموظفون يغادرون. وراح الشاب الواقف عند عتبة المكتب يبحث عن دلفـوس بعينيـه، ولم يلبث أن رآه بقرب واجهة دكان السكائر، وهو يدخّنُ سيكارة ذات فلتر مذهب.

ـ «إذاً؟».

ـ «لقد سدّد حساب التبغ!».

سارا جنباً الى جنب.

كانـا في أمسّ الحـاجة للإحساس بأن حشد المارّة يحوطهما وينسابُ بمحاذاتهما.

ـ «هيّا بنا الى الـ «بيليكان». لقد قصدتُ متجر عمّي. ولم أمكث هناك أكثر من بضع ثوان. فدسست يدي داخل الدُرج... ودون أن أتعمّد ذلك... نلتُ أكثر بكثير مما أردت...».

ـ «كـم؟».

ـ «نحو الألفين...».

ذُهل شابو لضخامة المبلغ.

«خذ، هذه ثلاث مئة فرنك لصندوق النثريات. وسنقسم الباقي».

ـ لا، أبداً!».

كان كلٌّ منهما مصّراً على موقفه، والفارق الوحيد هو أن إصرار دلفوس كان يشي بنبرةِ توعّد.

ـ «إنه أمر طبيعي! الم نقتسم الأشياء كلّها من قبل؟».

ـ «لا أحتاج هذا المال».

ـ «ولا أنـا».

حين مرّا بأحد المباني شخصت عيناهما من تلقائهما في شرفة حجرية عند الطبقة الأولى. إنها الغرفة المفروشة التي تقيم فيها أديل، راقصة الـ «غيه مولان».

ـ «ألم تمرّ بتلك الناحية؟».

ـ «لقد سلكت شارع بودور... كانت الأبواب مفتوحة، شأنها في كلّ صباح... وكان فيكتور وجوزيف يكنسان...».

شبك جان أصابع يديه ولواها بشدّة فأحدثت طقطقة.

ـ «ومع ذلك تقول إنّك رأيته فعلاً، ليلة أمس، أليس كذلك؟...».

ـ «أنا واثق مما أقول، إنّه التركي!» ردّد دلفوس مُرتعداً.

ـ «ألم تلمح رجال الشرطة في الجوار؟».

ـ «لا شيء! الأمور كلّها عاديّة... وعندما رآني فيكتور ناداني وألقى عليّ تحية الصباح...».

دخلا الى الـ «بيليكان» وجلسا الى طاولة بمحاذاة الواجهة الأمامية، وطلبا كوبين من البيرة الانكليزية. ثمّ لم يلبث جان أن رأى أحد روّاد المقهى جالساً قبالته.

ـ «لا تلتفت... انظر في المرآة... لقد كان في الليلة الفائتة في... تعلم جيّداً ماذا اقصد...».

ـ «اليدين!... بلى، عرفته..».

كان ذلك آخر زبون دخل الى الـ «غيه مولان»، الرجل اليدين

قوي البنية الذي احتسى البيرة.

ـ «من المؤكد أنه ليس من أهلِ «لييج»».

ـ «إنه يدخن سكائر فرنسية. انتبه! إنه يراقبنا».

ـ «أيّها النادل! نادى دلفوس. كم الحساب؟ كان لك بذمتنا نحو اثنين وأربعين فرنكاً على ما أظن؟».

أعطاه ورقة نقدية من فئة المئة، وحرص على أن يظهر له حزمة الأوراق الأخرى.

ـ «تناول شراباً على حسابنا!».

كانا لا يشعران بالأمان أينما حلّا. لم يمضِ عليهما وقت طويل حتّى غادرا مواصلين سيرهما ودفع القلق بشابو للالتفات الى الوراء.

ـ «الرجل يتعقبنا! إنه وراءنا بأية حال...».

ـ «أصمت! إن كلامك يثير فيَّ الذعر. وما الذي يدفع رجلاً مثله لتعقّبنا؟».

ـ «لا بدّ أنهم عثروا على... الـ ... التركي .. أو ربّما لم يمت...».

ـ «أرجوك أصمت!» أنّبه دلفوس بنبرةٍ تزداد قسوتها.

سارا ثلاث مئة متر صامتين.

ـ «أتعتقد أنّه ينبغي أن نذهب الى هناك هذه الليلة؟».

ـ «بالطبع! ذلك أن تغيبنا الليلة قد يثير الشبهات...».

ـ «ولكن قُلْ، ألا تعتقد أن أديل قد تعلم شيئاً ما بهذا الشأن؟».

كان جان متوتّر الأعصاب. لا يعرف الى أين ينظر أو ماذا يقول. لا يجـرؤ على التلفت ويشعـر بأن الرجـلَ ذا المنكبين العريضين ما زال يعتقبهما.

- «إذا عبَرَ الجسر خلفنا، فهذا يعني أنه يتعقبنا!».

- «هل أنت عائد الى البيت؟»

- «ينبغي أن أعود... فوالدتي حانقة...».

كان يشعر برغبةٍ في البكاء، هناك، وسط الشارع.

- «إنه يعبر الجسر... ترى جيّداً انه يتعقّبنا!.. ».

- «اصمت!... الى اللقاء هذه الليلة.. لقد وصلت...».

- «يا رينـه!».

- «مـاذا؟...».

- «لا أريد أن أحتفظ بكل هذا المال... إسمع!...».

ولكن دلفوس دخلَ الى بيته غير مبالٍ بكلامٍ صديقه. راح جان يحثّ الخطى ناظراً الى الواجهات الزجاجية للتثبّت من أن الرجل لا يزال يتعقبه.

بات الأمرُ مؤكداً إذ وجد الرجلَ في أعقابه مُتنقلاً بين الشوارع الهـادئـة لضـاحية المدينة التي تقع على الضفة الثانية من نهر «المـوز». وعندما أدرك ذلك خارت ساقاه. وكاد أن يقف في مكانه لشدّة إحساسه بالدوار. إلاّ أنه، على العكس من ذلك، مشى بسرعةٍ أكبر كأنّ الخوف الذي ألـمّ به يدفعه الى الأمام بقوة.

وعندما وصل الى المنزل سألته أمّه:

ـ «ما بـك؟».

ـ «لا شيء...».

ـ «تبدو شاحباً... لا بل تبدو مكفهرّاً...».

وبنبـرةِ غضب.

ـ «إنه أمر جميل، أليس كذلك؟... في مثل سنّك. وتعرّض نفسك لمثل هذه المواقف!... أين تسكعت هذه الليلة؟... وبرفقة مَنْ؟... أكاد لا أفهم سلوك والدك الذي لا يستطيع أن يكون صارماً معك... هيّا! كُلْ...».

ـ «لستُ جائعاً».

ـ «الآن أيضاً؟».

ـ «دعيني يا أمي لو سمحتِ؟... أشعـر بأنني لستُ على ما يرام... ولا أدري ما يُصيبني...».

إلّا أن نظرات السيّدة شابو الحادّة لم ترقّ لحاله. إنها امرأة قصيرة القامة، صارمة وعصبيّة المزاج، كثيرة الانهماك ليلاً ونهاراً.

ـ «إذا كنت تشعر بتوعّك، فسأستدعي الطبيب.

ـ «لا! أرجوك...».

وقع أقدام على الدرج. ولا يلبث أحد الطلاب أن يُطلّ برأسه عبر باب المطبخ المفتوح. وبعد أن نُقر الباب بضرباتٍ خفيفة، طالعهما بسُحنةٍ قلقة متوجسة.

ـ «يا سيّدة شابو، أتعرفين الرجل الذي يتنزّه في الشارع أمام الباب؟».

كان يتكلم بلكنةٍ سلافية واضحة. وبدت عيناه متوقدتين إذ من عادته أن يضطرب لأتفه الأسباب

كان قد جاوز السنّ المعتادة لمتابعة الدروس الجامعية. إلاّ أنّه يُصرّ على تسجيل نفسه في احدى الكليّات دون أن يواظب على متابعة الدروس.

وما يُعرفُ عنه أنه من أصل جيورجي وأنّه كان مناضلاً سياسيّاً في بلاده. ويزعم أنه من طبقة النبلاء.

ـ «أيّ رجل يا سيد بوغدانوفسكي؟»

ـ «تعالي...».

واقتادها الى ردهة الطعام التي تطلّ نافذتها على الشارع.

تردّد جان قليلاً قبل أن يلحقهما. إلاّ أنه لم يلبث أن تبعهما هو أيضاً.

ـ «إنه يقف هناك منذ ربع ساعة تقريباً يذرع الشارع جيئةً وذهاباً... مثل هذا الأمر ليس غريباً علي!... من المؤكّد أنه أحد رجال الشرطة...».

ـ «لا، أبداً! أجابت السيِّدة شابو بنبرةٍ تفاؤل. أنتَ ترى رجال الشرطة في كلٍّ مكان! انه، ببساطة، شخصٌ ينتظر شخصاً آخر تأخر عن موعده...».

ولم يَحُلْ جوابها دون أن يحدّجها الجيورجي بنظرات ارتياب، ثمّ غمغم بكلمات في لغته الأمّ وصعد الى غرفته. أما جان فقد عرف الرجلَ ذا المنكبين العريضين.

- «وأنتَ، تعالَ لتأكل! ولا تختلق الأعذار، أسمعت؟ وإلّا إذهب فوراً الى سريرك ريثما أستدعي طبيباً...».

ليس من عادة السيّد شابو أن يعود الى البيت ظُهراً. وكان جان ووالدته يتناولان طعام الغداء في المطبخ، حيث لا تجلس السيّدة شابـو لحـظة واحدة، بل تواصل انهماكها وحركتها الدائمة بين الطاولة والفرن.

وبينما يُحاول جان ابتلاع بعضِ الطعامِ مُطرقاً، كانت تراقبه بعينين يقظتين، ثمّ انتبهت فجأةً الى شيءٍ ما في ملابسه.

- «من أين لك ربطة العنق هذه؟»

- «لقد... إنه رينه، هو الذي أعطاني إياها...».

- «رينه، دائماً رينه. وأنتَ، ألا تمتلك ذرة من الاعتزاز بالنفس؟ كم أخجلُ لحالك! أناس أثرياء ربّما، لكنّهم ليسوا من ذوي السمعة الطيبة! حتّى أن والديه يعيشان سوياً من دون زواج...».

- «يا أميمتي!».

في العادة كان يناديها: يا أمّي. إلّا أنّه أراد أن يخاطبها متوسّلاً. فقـد طفـح به الكيل. انه لا يريد شيئاً، سوى بضع ساعاتٍ من الهدوء يقضيها بسلام في البيتِ الذي يحيا فيه. كان يتخيّل صورة الرجلِ الذي ينتظر قبالة الباب، بمحاذاة سور المدرسة التي أمضى فيها أولى سنوات تعليمه.

- «لا يا بُنيّ! لقـد سلكتَ أسـوأ السُبـل، وها أنا أحذّرك من العواقب! لقد آن لك ان تبدّل ما أنتَ فيه، إذا أردت أن لا يحطّ بك الدهر كما حطّ الدهرُ بعمك هنري.. ».

كان ذلك اشبـه بكـابـوس، إصرارهـا على تذكيره بالعمّ الذي يُصادفه أحياناً مُتعتعاً من السكر، أو يراه في أحيان أخرى مُعتلياً سُلماً وقد شرع بدهن واجهة أحد البيوت.

ـ «مع أنّه أتمّ مراحل تعليمه! وكانت شهادته تؤهله للحصول على أي منصب...».

نهض جان قبـل أن يُكمـل مضـغ طعـامه وخطف قبّعته عن المشجب وغادر مُسرعاً.

بعض الصحف في «لييج» تصدر في طبعات صباحيّة، إلّا أن الصحف المهمة تصدر في طبعة أساسية عند الثانية من بعد ظهر كل يوم. سار شابو في اتجاه وسط المدينة وقد غشيت حواسه غلالة مشرقـة بأشعة الشمس، كأنّ أبصاره زائغةٌ لا ترى، وما إن عبر الجسر حتى أيقظه صراخ البائع:

ـ «أطلبـوا «لا غازيت دو لييـج»!... «لا غازيت دو لييج» التي صدرت الآن... الجثة في حقيبة القنب!... تفاصيل مُرعبة... أطلبوا «لا غازيت دو لييج»!...».

بقـربه، على بُعدِ مترين، كان الرجلُ العريض المنكبين يشتري الصحيفـة. وعبثاً فتّش جان في جيبه عن قطع نقدية صغيرة بين الأوراق النقدية التي كان قد دسّها فيه دون أن يطويها. وعندئذٍ تابع طريقه، وعلى بُعد خطوات دفع باب المكتب حيث وجد الموظفين هناك في كامل عددهم.

ـ «خمس دقائق تأخير، يا سيّد شابو! قالَ المساعد الأوّل مؤنباً. ليس بالكثير، ولكنّ الأمر يتكرّر...».

- أرجو المعذرة.. إنها الحافلة التي...لقد أحضرت لك أمانة النثريّات...».

كان يشعر بأنّ سحنته ليست هي سحنته المعتادة. كأنّ حريقاً يلهبُ وجنتيه وتنبضُ حدقتاه بوخزٍ مؤلم.

راح السيّد هوسيه يقلب صفحات الدفتر ويدقق في مجموع الحسابات المدوّن أسفل كل صفحة.

- «الباقي مئة وثمانية عشر فرنكاً ونصف الفرنك. . أليس كذلك».

وانتبه جان فجأةً الى أنّه لم يستبدل ورقة المئة فرنك بقطعٍ أصغر منها. وسمع المساعد الثاني يحدّث السكرتيرة عن حقيبة القنّب.

- «غرافوبولوس. أهو اسم تركي؟».

- «يبدو أنه يوناني...».

كان الطنين يصمّ أذني جان. وسحبَ من جيبه ورقتين من فئة المئة فرنك. فأشار السيد هوسيه الى شيء سقط من جيبه على الأرض: ورقة ثالثة من فئة المئة فرنك.

- «يبدو لي انّك تستخفُّ كثيراً بالمال. ألا تملك محفظة جيب؟».

- «أرجو المعذرة...».

- «لو يراك الأستاذ كيف تدسُّ الأوراق النقدية في جيبك... ولكن لا بأس! احتفظ بالمبلغ المتبقي... وعندما ينفذ منك المال، أصرف لك مبلغاً آخر... والآن عليك أن تعرّج على مكاتب الصحف المحليّة

لتسليم هذه الإعلانات الرسمية... إنها أمور مستعجَلَة! وينبغي أن تصدُر صباح الغد...».

التركي! التركي! التركي!...

وما أن أصبح في الخارج، اشترى جان نسخةً من الصحيفة، ومكث لبعض الوقت بين فضوليين سارعوا الى شراء نسخهم، ريثما يردّ له البائع البقية. ثمّ سار منكباً على قراءة الخبر ومتعثراً بالمارة:

سرّ حقيبة القنّب

«هذا الصباح، نحو التاسعة، وفيما كان حارس حديقة الحيوانات يتهيّأ لفتح الباب فوجىء بحقيبة ضخمة الحجم ومصنوعة من الياف القنّب، وقد تركت فوق إحدى المروج المكسوّة بالعشب. وحاول الحارس أن يفتحها فلم يتمكّن من ذلك. فقد كانت الحقيبة مقفلة بوساطة حزام معدني مثبّت بقفل متين.

«ولمّا عجز عن فتح الحقيبة استدعى الشرطي لوروا، الذي ابلغ بدوره كوميسير الشرطة في الفرقة الرابعة.

«ولم يتمّ فتح الحقيبة إلّا عند الساعة العاشرة بعد استدعاء صانع أقفال مختص وكان في داخلها ما أثار فضول المحققين!

«جثة مكوّمة على نفسها؛ ولم يتوان الفاعل عن كسر فقرات الرقبة لكي يتسع لها داخل الحقيبة

«صاحب الجثة رجلٌ على مشارف الأربعين يبدو أجنبياً، ولم يُعثر في جيوبه على محفظة أوراقه. وبعد البحث عثر في جيب صدريته على بطاقات زيارة تحمل اسم إفراييم غرافوبولوس.

«ولا بدّ أنّ المغدور قد وصل حديثاً إلى «لييج» إذ لم يُعثر على اسمه في سجلّات قيد الأجانب أو سجلات فنادق المدينة.

«ولن يعمد الطبيب الشرعي الى تشريح الجثة إلّا بعد ظهر اليوم، ولكنّ التقديرات الأولية ترجّح أن الوفاة حدثت خلال الليلة المنصرمة وأن الفاعل استخدم أداة ثقيلة جداً قد تكون هراوة من المطاط الصلب، أو قضيباً حديدياً أو كيس رمل أو عصا بمقبضٍ من رصاص.

«وسننشر في طبعتنا التالية كلّ تفاصيل هذه القضيّة المثيرة».

كان جان منكباً على قراءة النبأ حين وصل الى شبّاك المحاسبة في صحيفة «لا موز»، حيث سلّم الاعلانات الرسمية ومكث قليلاً ريثما يُحرّر له وصل استلام.

كانت المدينة تزدحم بحركة السيّارات والمارة، تحت أشعة الشمس. فقد كانت تلك هي آخر أيام الخريف وبدأ العمل على أرصفة الجادّات في انشاء الأكشاك المتنقلة في انتظار «الكرمس» الكبير الذي يُقام في شهر تشرين الأول/ أكتوبر.

وعبثاً حاول أن يعثر على أثرٍ للرجل الذي تعقّبه طيلة فترة الصباح. وإذ مرّ أمام واجهة الـ «بيليكان» ألقى نظرة على الداخل للتثبت من أنّ دلفوس، الذي لا يكون في الجامعة بعد ظهر ذلك اليوم، ليس موجوداً هناك.

وبدل أن يتابع سيره قدماً قام بدورةٍ أطول عبر شارع بودور. كانت أبواب الـ «غيه مولان» مفتوحة، والصالة غارقة في العتم ولا يُرى فيها إلّا نسيج المقاعد الأحمر. وكان فيكتور منهمكاً برش الزجاج بالماء وغسله، فحث شابو خطاه ليتوارى قبل أن يراه أحد.

وعرّج على صحيفة «اكسبرس» وصحيفة «جورنال دو لييج»...

فتنته شرفة أديل. تردّد قليلاً. لقد زارها مرّةً واحدةً منْ قبل، منذ

شهر تقريباً. أقسم له دلفوس أنه كان عشيقها لبعض الوقت ولذلك قرع بابها عند الظهر متذرّعاً بحجةٍ سخيفة فاستقبلته في قميصٍ شفاف وواصلت تبرّجها وهي تتحدّث اليه كما تتحدث عادةً الى صديق مقرّب.

لم يحاول التحرّش بها. إلاّ أن هذا لم يقلّل شيئاً من غبطته للحميميّة التي سادت جلستهما.

دفع باب الطبقة السفلية، قرب متجر البقالة، وصعد السلّم المعتم وقرع بابها.

في البداية لم يسمع من الداخل جواباً. ولكن، بعد قليل، سمع صوت أقدامٍ متعثرة. وفتح الباب فنفذت منه رائحة سبيرتو قوية.

ـ «هذا أنت! لقد حسبتُ أنّه صديقك!».

ـ «لماذا؟».

كانت أديل قد عادت أدراجها نحو السخّان المُنكّل الذي وضعت عليه كاوي الشعر.

ـ «لا أدري! مجرّد خاطرة! أغلق الباب بسرعة! هناك مجرى هواء قوي...».

في تلك اللحظة، أحسّ شابو برغبة في أن يُسرّ اليها بكلّ شيء، أن يروي لها تفاصيل ما جرى، ويسألها النصح، علّه يجد العزاء المُرتجى لدى تلك المرأة ذات العينين المتعبتين والجسد الرخيص، ولكن المُشتهى، تحت القميص: تلك المرأة ذات الخفين من

الساتان الأحمر، تنتعلهما وتجرّ قدميها الرقيقتين في أرجاء الغرفة التي تعمها الفوضى.

فوق السرير الغارقِ في فوضى الأغطية رأى نسخةً من صحيفة «لا غازيت دو لييج».



- ٣ -

الرجل المريض المنكبين



كانت قد نهضت للتوّ من نومها، ووضعت قرب السخّان علبةً من الحليب المركّز.

«ألم يأتِ صديقك برفقتك؟» ألحّت في سؤالها.

فامتقع وجه شابو لسؤالها وأجابها بنبرةٍ حانقة.

ـ «ولِمَ ينبغي أن يكون برفقتي؟».

لم يستوقفها تبدل نبرته وفتحت الخزانة وأخرجت منها قميصاً من الحرير المزركش.

ـ «أصحيح أن والده من كبار رجال الصناعة؟»

كان جان لا يزال واقفاً، ممسكاً بقبّعته، يحدّجها في حركتها المتواصلة أمامه، بنظراتٍ تنمّ عن مشاعر مشوّشة حيث تمتزج الكآبة والرغبة ونظرة الإثارة الغريزية للمرأة والاحساس العميق بالقنوط.

لم تكن جميلة، خصوصاً في قميصها المجعوك وخُفّي الساتان. لكنّها بدت في عينيه أشدّ فتنةً، ومفعمةً بتلقائية حميمة. أكانت في الخامسة والعشرين من عمرها، أو في الثلاثين ربما؟ ولكن من

الواضح أنها خبِرَت الحياة جيّداً. كانت غالباً ما تتحدّث عن باريس وبرلين وأوستاند وتذكر، في معرض حديثها، أسماء لملاهٍ ليلية شهيرة.

وكانت تفعل ذلك دون حماس أو استعلاءٍ أو تياه. بل على العكس، فكلّ ما في طبعها ينمّ عن عياءٍ ظاهر وملل تفضحه نظرات عينيها الخضراوين، وتفضحه طريقتها الرشيقة في حمل سيجارتها بين شفتيها وحركاتها وابتساماتها.

ـ «ماذا يصنع؟».

ـ «الدرّاجات ..».

ـ «إنه أمر مضحك! لقد عرفتُ في سان إتيان صانعاً آخر للدرّاجات. كم عمره؟...».

ـ «الأب؟».

ـ «لا، رينه...».

ازداد عبوسه حين سمع الاسم مجدّداً.

ـ «ثمانية عشر عاماً...».

ـ «أراهن أنه فتى متهتك؟».

كانت الأُلفة تامةً. لقد تعامل جان شابو معها كندٍّ لها. إلّا أنها حين تذكر اسم رينه دلفوس يمتزج صوتها بنبرةٍ لا تخلو من الوقار.

هل فطنت الى أن شابو ليس ثرياً، وأنه ينتمي الى وسطٍ اجتماعي مماثلٍ لوسطها؟

ـ «اجلس!... ألا يزعجك أن أرتدي ملابسي؟... ناولني علبة السجائر...».

بحث عنها من حوله.

ـ «إنها على المنضدة قرب السرير!... أحسنت...».

وبالكاد تجرأ جان، وقد امتقع لونه، على لمس العلبة المعدنية التي رآها ليلة أمس بين يدي الغريب. ونظر الى رفيقته التي بدت عاريةً تحت القميص الحاسر منهمكةً بارتداء جوربيها.

شعر باضطراب يفوقُ ما أحسَّ به فور وصوله. واحمرّت وجنتاه، ربّما بسبب علبة السجائر وربّما بسبب عُري المرأة، والأرجح أن ذلك كان للسببين معاً.

لم تكن أديل مجرّد امرأة. بل كانت امرأة قدّر لها التورط في مأساة، امرأة تخفي سّراً من دون ريب.

ـ «إذاً؟».

ناولها العلبة.

ـ «ألديك ولعة؟.. ».

كانت يده ترتعشُ إذ مدّ يده بعود الثقاب المشتعل. فراحت تضحك.

ـ «قل أيها الفتى: يبدو انّك لم تر كثيراً من النساءِ في حياتك!...».

ـ «لقد حظيت بعددٍ من العشيقات».

استرسلت في ضحكها. حدّجته بنظراتٍ ثابتة وقد أغمضت جفنيها نصف إغماضة.

ـ «تبدو مثيراً للضحك!... فتى غريب... ناولني حزامي...».

ـ «لقد عدتِ في ساعة متأخرة هذه الليلة؟».

نظرت اليه بشيء من الانتباه.

ـ «لا تقل لي إنّك عاشق... وإن الغيرة تفقدك صوابك!... الآن أدرك سبب عبوسك حين حدّثتك عن رينه... هيّا! استدر نحو الحائط.. ».

ـ «ألم تقرئي الصحف؟».

ـ «قرأت الرواية المسلسلة».

ـ «لقد قتل الرجل، رجُل ليلة أمس».

ـ «هل تمزح؟».

لم يخضها النبأ كثيراً. أبدت فقط بعض الفضول.

ـ «ومن قتله؟».

ـ «لم يعرف بعد. لقد عثر على جثته داخل حقيبة من القنّب».

ألقت قميصها فوق السرير. واستدار جان نحوها بعد أن انتهت من ارتداء قميص آخر وراحت تبحث عن فستانها في الخزانة.

ـ «قصة أخرى لن أجني منها غير المتاعب!...».

ـ «هل غادرت الـ «غيه مولان» برفقته؟».

ـ «لا! غادرتُ بمفردي...».

ـ «آه!».

ـ «يبدو انّك لا تصدّق كلامي... فهل تحسبُ مثلاً أنني اصحب كلَّ زبائن الملهى الى غرفتي؟... أنا راقصة يا صغيري... وبصفتي

راقصة يجب أن أحثّ الزبائن على الشراب... ولكن ما إن يقفل الملهى أبوابه، ينتهي اللعب!..

ـ «إلّا أن هذا لم يحل دون أن يحظى رينه...».

وسرعان ما أدرك أنها حماقة.

ـ «إذاً، ماذا تقصد؟».

ـ «لا شيء. لقد قال لي...».

ـ «إنه أحمق! وأنا أقول لك إنّه بالكاد قبلني... ناولني سيكارة أخرى...».

وبعد أن اعتمرت قبّعة، قالت:

ـ «هيّا بنا! يجب أن أذهب للتسوّق... هيا!... أغلق الباب...».

وهبطا السلم المعتم، أحدهما خلف الآخر.

ـ «إلى أين وُجهتك؟».

ـ «سأعود الى المكتب».

ـ «ستأتي هذا المساء؟».

كان الرصيفُ مزدحماً بالمارة وافترقا، وبعد دقائق معدودة كان جان شابو يجلس الى مكتبه وأمامه رزمة من المغلّفات ليلصق عليها الطوابع البريدية.

ودون أن يدرك تماماً لماذا، كان إحساسه بالخوف قد تبدّل الى شعور غامض بالكآبة. وأجال نظره في أرجاء المكتب الذي كسيت جدرانه بالبيانات الرسمية وأحسّ بالاشمئزاز.

ـ «ألديك الوصولات؟» سأله المساعد الأوّل.

فأعطاه الوصولات.

- «وماذا عن «لا غازيت دوليبج»؟ أنسيت «لا غازيت دوليبج»؟».

إنها مأساة! كارثة! إذ اكتست نبرة المساعد الأوّل طابعاً مأساوياً.

- «اسمع جيداً يا شابو، ينبغي أن أنبّهك الى أن الحال لا يمكن أن تستمر على هذا المنوال! فالشغلُ شغل. والواجب واجب. وأجدني مُرغماً على التحدّث الى الأستاذ بهذا الشأن. هذا بالإضافة الى ما نُمي إليّ بشأن ارتيادك أماكن مشبوهة، خلال الليل؛ تلك الأماكن التي لم أطأها يوماً في حياتي. وبصراحة أجدُ انّك تفسد حياتك. انظر إليّ حين أكلمك! ولا تطالعني بمثل هذه السحنة الهازئة! أتسمعني؟ لن ينتهي الأمر عند هذا الحدّ...».

وصفق الباب مُغادراً. أمّا الفتى فقد مكثَ وحيداً يتابع لصق الطوابع على المغلفات.

في مثل ذلك الوقت كان من عادة دلفوس ارتياد مقهى الـ «بيليكان» أو يشاهد فيلماً في احدى صالات الناحية. كانت الساعة تشير الى الخامسة. ومكث جان شابو يراقب عقرب الساعة يتقدّم نابضاً ستين مرّة وفي كلّ مرّة دقيقة، ثمّ نهض وأمسك بقبّعته بعد أن أقفل دُرْج مكتبه بالمفتاح.

لم يكن الرجل العريض المنكبين في الخارج. وكان الطقسُ بارداً بعض الشيء. أرخى الغروبُ في فضاء الشوارع غلالاتٍ واسعة من الضباب الموشى بالزرقة الخفيفة وقد التمعت في نسيجها مصابيحُ الأعمدةَ ونوافذ الحافلات العابرة.

ـ «اطلبوا «لا غازيت دو ليبج...».

لم يكن دلفوس في مقهى الـ «بيليكان». وراح شابو يبحث عنه في مقاهي الوسط الأخرى حيث اعتادا أن يلتقيا. وكان يشعر بوهنٍ في ساقيه ودوارٍ في رأسه، فصمّم على العودةِ الى منزله كي ينام.

وما إن دَخَل الى المنزل حتّى خالجه حدس غريب بأنّ شيئاً ما غير عادي قد حدث. كان باب المطبخ مفتوحاً. وبدت الآنسة بولين، الطالبة البولندية التي تقيم في احدى غرف البيت المفروشة، وهي تنحني فوق شخص ما لم يستطع أن يعرف من هو على الفور.

تقدّم بصمت. وفجأة علا صوتُ نحيب. التفتت الآنسة بولين نحوه وقد اكتست سحنتها ملامح الجفاءِ المقطّب.

ـ «انظر الى أمّك، يا جان!».

وكانت السيّدة شابو بمئزرها المعتاد وقد ارتفقت طاولة المطبخ مُجهشةً في البكاء.

ـ «ما الأمر؟».

وأجابت الفتاة البولندية:

ـ «أنت الأدرى...».

ومسحت السيدة شابو عينيها الحمراوين ونظرت الى ابنها وعاودت انتحابها.

ـ «سيتسبب في موتي!... إنّه مُريع!...».

ـ «ماذا فعلتُ يا أمي؟».

كان جان يُخاطبها بصوتٍ حيادي واضح النبرة. فقد بلغ منه

الخوف حدّاً جعله جامداً لا يقوى على الحركة.

- «لو سمحتِ يا آنسة بولين. . كان لطفاً منك... ونحن الذين آثروا دائماً أن يكونوا فقراء، ولكن شرفاء!...».

- «لا أفهم شيئاً.. »

غادرت الطالبة. وسُمعت أصداء خطواتها الثقيلة وهي تصعد الدَرَج. ولكنّها حرصت في النهاية على أن يبقى باب غرفتها مفتوحاً

- «ماذا فعلتَ؟... قل لي بصراحة... والدك سيعود بين دقيقة وأخرى... فقط حين أفكّر أن سكان الناحية كلّها سيـ...».

- «أقسم لك أنني لا أفهم شيئاً!...».

- «أنت كاذب!... تعلم جيّداً أنّك كاذب، ولا تكفّ عن الكذب منذ أن رحت تعاشر دلفوس وتلك الغانيات!. منذ نصف ساعة جاءت السيّدة فيلدن، بائعة الخضار، لاهثةً... وكانت الآنسة بولين هنا... وأخبرتني السيّدة فيلدن على مسمع من بولين أن رجلاً ما جاء يستقصي بعض المعلومات بشأنك وبشأننا... ولا بدّ أنّه من رجال الشرطة!... ولم يجد سوى السيّدة فيلدن ليسألها، لأنها نمّامة الناحية كلّها!... ولا بدّ أن الخبر قد شاع الآن بين أهل الناحية.. ».

كانت قد نهضت وراحت تسكبُ بحركة عفوية الماء الساخن فوق مصفاة ركوة القهوة. ثمّ أخرجت غطاء طاولة من إحدى الخزائن.

- «هذا ما نجنيه لقاء التضحيات التي بذلناها في تربيتك!... الشرطة التي تلاحق أخبارنا والتي ربّما جاءت لزيارتنا!... لا أعرف ماذا سيفعل والدك بك.. ولكن ما أعرفه جيداً أن والدي كان

ليطردك من المنزل... وعندما أقول في سرّي أنّك لم تبلغ السابعة عشرة!... إنها غلطة أبيك!... هو الذي يتغاضى عن سهرك وغيابك حتى الثالثة فجراً... وعندما أغضب منك يقفُ دائماً الى جانبك»

ودون أن يعرف جان سبباً ليقينه هذا، إلّا أنّه كان واثقاً بأن الشرطي المزعوم ليس سوى الرجل العريض المنكبين. كان مطرقاً ويعتملُ الغيظ في صدره.

ـ «هكذا إذاً، أتقف صامتاً؟ ألا تريد الاعتراف بما اقترفت يداك؟».

ـ «لم أفعل شيئاً، يا أمي...».

ـ «وهل كانت الشرطة لتسأل عنك لو انّك لم تفعل شيئاً؟».

ـ «ليس مؤكداً انّه من رجال الشرطة!»

ـ «إذاً، من يكون؟»

وفجأة تجرّأ على الكذب لكي ينهي فصول هذا الموقف الصعب.

ـ «ربّما كان مجرّد رب عمل يريد أن يستخدمني، ولذلك يُحاول جمع بعض المعلومات بشأني... حيث أعمل الآن لا أتقاضى الراتب الذي أستحقه.. ولذلك حاولتُ هنا وهناك أن أجدَ عملاً أفضل...».

حدّجته بنظرات ثاقبة.

ـ «انك تكذب!».

ـ «أقسم لك...».

ـ «هل أنت واثق من أنكما، أنت وصديقك دلفوس، لم تقترفا فعلة شائنة؟».

ـ «أقسم لك، يا أمي...».

ـ «في مثل هذه الحال، حريّ بك أن تذهب الى السيّدة فيلدن... فلا داعي لأن تخبر الجميع بأنّ الشرطة تبحث عنك!».

دار المفتاح في قفل باب المدخل. وبدا السيّد شابو وهو يخلع معطفه ويعلقه على المشجب ثمّ دخل الى المطبخ وجلس فوق الكنبة المصنوعة من ألياف القنّب.

ـ «أنت هنا يا جان؟».

ولم يُخفِ دهشته لاحمرار عيني زوجته ولسحنةِ الفتى الغريبة.

ـ «ما الأمــر؟».

ـ «لا شيء!... كنت أوبّخ جان... لقد سئمتُ من عودته تكراراً في ساعات متأخرة من الليل... فمن يراه على هذه الحال يحسبُ أنّه لا يشعر بارتياح في حياته العائلية...».

وراحت تضع الأطباق على الطاولة وتملأ الأكواب وشرع السيّد شابو بالتهام طعامه وهو يقرأ الصحيفة ويُعلّق على الأنباء.

ـ «قضية أخرى ستثير الكثير من الضجيج!... جثة في حقيبة من القنب... إنها جثة أجنبي بالطبع!... ولا بدّ أنه جاسوس...».

ثمّ ينتقل الى موضوع آخر:

ـ «هل دفع السيّد بوغدانوفسكي؟».

ـ «ليس بَعْد. قال لي إنه ينتظر وصول المال يوم الأربعاء!».

ـ «لكنه ينتظر وصوله منذ ثلاثة أسابيع! ليكن! ويوم الأربعاء تعلمينه بأنّ الأمور لا يمكن أن تستمر على هذه الحال.. »

كان الجوّ ثقيلاً مُشبعاً بالروائح المألوفة والانعكاسات المتراوحة على آنية النحـاس، وبقـع الألوان الفـاقعة في صورة الروزنامة الإعلان المعلّقة عند الحائط منذ ثلاثة أعوام والتي باتت تستخدم لحفظ الصحف.

كان جان يتناول طعامه على مهل وشيئاً فشيئاً استغرقته الأفكار التي طالعته من كل صوب. ففي كنفِ هذا المناخ المنزلي المألوف كانت تساوره الشكوك حول حقيقة ما يجري في الخارج. لذا يكاد لا يصـدّق أنّـه لسـاعتين خلتا كان يجلس في غرفة راقصة وهي منهمكـةٌ بارتداء جوربيها أمامه فيما انحسر قميصها كاشفاً عن جسدٍ بضّ على شيء من السمنةِ والترهّل.

- «هل استعلمت بشأن المنزل؟».

- «أي منـزل؟».

- «المنزل الذي يقع في شارع فيرونستريه».

- «لقد... أعني، لقد نسيت...».

- «على جاري عادتك!».

- «أرجو أن تكون مصمماً على الراحة هذا المساء! تبدو لي متوعكاً».

- «أجل... لن أخرج الليلة...».

- «إنها المرّة الأولى، طيلة هذا الأسبوع!» قالت السيّدة شابو التي لم تطمئن كثيراً لأقوال جان بل راحت ترمقه بنظرات قلقة.

سُمـع طَرْقٌ على علبة البريد. فهرع جان لفتح الباب فقد كان

واثقاً من أنّ الطارق يقصده. ونظر السيّد والسيّدة شابو من خلال الباب الزجاجي.

ـ «إنه دلفوس! قالت السيّدة شابو. لن يدع جان وشأنه. وإذا تابع على هذا المنوال فسأذهب لزيارة أهله...».

كانا يراقبانهما وهما يتحدّثان همساً عند العتبة. والتفت شابو مراراً للتثبت من أنّ والديه لا يسمعان ما يدور بينهما. وبدا كمن يُقاوم الرضوخ لطلب ملحاح.

وفجأةً صرخ من مكانه دون أن يدخل الى المطبخ:

ـ «سأعود بعد قليل!».

نهضت السيّدة شابو لتَحُوْل دون خروجه. إلاّ أنه سرعان ما التقط قبعته عن المشجب بحركة استعجال تنمّ عن ارتباك شديد وأغلق الباب وراءه بقوة.

ـ «أوتدعه يتصّرف على هذا النحو؟ صرخت في وجه زوجها. أهذا هو الاحترام الذي يكنّه لك؟ لو كنت أكثر تشدّداً...».

وواصلت كلامها على هذا المنوال، تحت نور المصباح، وهي تأكل فيما السيّد شابو يلقي بنظراتٍ خاطفة على الصحيفة التي لا يجروً على متابعة قراءتها قبل ختام المحاضرة المعتادة.

*

* *

ـ «هل أنت واثق ممّا تقول؟».

ـ «بالطبع... لقد عرفته... لقد كان في الماضي مُفتّش حيّنا...».

لقد كان دلفوس مذعوراً كما لم يره من قبل، وما إن عبرا تحت أنوار مصباح البلدية حتّى هاله مقدار امتقاعه. كان يدخن بنفثات قصيرة متلاحقة.

ـ «الأمر بات يفوق احتمالي... منذ أربع ساعات وهو يُطاردني... انظر! التفت بسرعة. . أسمع خطواته على بُعدِ مئة متر وربّما أقلّ...».

التفت ولم يرَ إلّا خيال رجل عادي يسيرُ بمحاذاة البيوت على طولِ شارع «لا لوا».

ـ «لقد راح يتعقبني فور فراغي من تناول طعام الغداء.. وربّما قبل ذلك... إلّا أنني لم أتنبّه الى الأمر إلّا حين جلستُ على شرفة الـ «بيليكان»... جلسَ الى طاولة مجاورة... وعرفته... منذ عامين وهو يعمل في صفوف الشرطة السريّة. لقد اضطرّ والدي الى التعامل معه عقب حادثة سرقة تعرّض لها مخزن الحديد... ويُدعى جرار أو جيرار... ولست أدري لماذا غادرت المكان... كان وجوده في الجوار ينرفزني... سلكت شارع «لا كاتيدرال» وراح يتعقبني... دخلتُ الى مقهى آخر... فمكث ينتظرني في الخارج على بعد مئة متر... ثمّ دخلت الى سينما «موندان» وسرعان ما وجدته جالساً في الصف الثالث خلفي... لا أذكر الآن ماذا فعلتُ ايضاً... مشيت طويلاً... وتنقلت في عددٍ من الحافلات... وكل ذلك بسبب الأوراق النقدية التي أحملها في جيبي!. . كم أودّ أن أتخلّص منها، لأنّه إذا فتّشني... لن أستطيع أن أبرّر مصدر كلّ هذا المال... أتقول أنّه مالك أنت؟.. وأنّ ربّ العمل أعطاك إيّاه مثلاً للقيام ببعض المشتريات.. ».

ـ «لا!».

كان جبين دلفوس يتصبّب عرقاً وبدت نظراته مزيجاً من القسوةِ والقلق.

ـ «ولكن ينبغي أن نتصّرف... ففي آخـر الأمـر سيعمـد الى اعتراض طريقنا واستجوابنا... لقد تعمّدت أن أذهب اليك لأننا، في آخر الأمر، كنّا معاً حين...».

ـ «ألم تتناول طعام العشاء بعد؟».

ـ «لستُ جائعاً... ماذا لو رمينا المال في النهر خلال عبورنا الجسر؟...».

ـ «سيلاحـظ!».

ـ «بامكاني أن أختلي في مغاسلِ مقهى ما... أو ربّما... اسمع! سنـدخل الى أحد المقاهي وستذهب أنت الى المغاسل وفي الأثناء أمكثُ أنا لكي لا أغيب عن أنظاره...».

ـ «وماذا لو لحقَ بي؟».

ـ «لن يلحق بك... هذا، علِماً بأنّ لك كلّ الحقّ في اقفال الباب بالمفتاح...».

كانـا لا يزالان في أحياء الضفّة الأخرى من نهر الموز، حيث الشوارع فسيحة ولكنّها مقفرة وقليلة الإضاءة.

وكـانت تتناهى الى مسامعهما خطوات الشرطي المنتظمة وبدا لهما أنّه لا يُحاول أن يُخفي تعقّبه لهما.

ـ «لماذا لا ندخـل الى الـ «غيـه مولان»؟... فقـد يبدو الأمر طبيعياً... ذلك أننا نرتاده كلّ مساءٍ تقريباً... ولو أننا قتلنا التركي

بالفعل لما تجرّأنا على دخوله مرّة ثانية...

ـ «لا يزال الوقت باكراً!».

ـ «سننتظر...».

كَفّا عن الكلام. عبرا جسرَ نهر الموز، وتسكّعا طويلاً في شوارع الوسط التجاري وقد حرصا على التثبّت بين الحين والآخر من أن جيرار لا يزال هناك يقتفي أثرهما.

شارع الـ «بودور»، وأبصرا اللافتة المضاءة التي تعلو مدخل الملهى الليلي الذي فتحت أبوابه.

ـ «هل ندخـل؟».

وتـذكّرا هروبهما منه خلال الليلة المنصرمة وبذلا جهداً كبيراً لاجتياز المسافة التي تفصلهما عن المدخل. كان فيكتور واقفاً عند الباب والفوطة فوق ذراعه، مما يعني أن الملهى خالٍ من الزبائن.

ـ «هيا بنا!».

ـ «مساء الخير، أيها السادة!... ألم تصادفا أديل في الطريق؟...».

ـ «لا! ألم تصل بعد؟».

ـ «لا، لم تصل بعد! إنه أمر مستغرب فمن عادتها أن تصل دائماً في موعدها! أدخلا... بورتو؟...».

ـ «بورتو، أجـل!».

كانت الصـالة مقفـرة. والعـازفـون لم يكبدوا أنفسهم مشقّة الشروع في العـزف. كانـوا يتبـادلون أطراف الحديث وأنظارهم

شاخصة في باب المدخل. أما صاحب المحلّ، في سترته البيضاء، فكان منهمكاً بترتيب البيارق الأميركية والانكليزية المصغّرة خلف البار.

- «مساء الخير أيّها السادة! بادرهما من بعيد. كيف الحال؟...».

- «على خير ما يرام!».

ودخل الشرطي بدوره. كان رجلاً فتياً ويشبه قليلاً المساعد الثاني للكاتب بالعدل. لم يرد أن يعطي قبّعته للحاجب وجلس الى طاولة بقرب الباب.

أشار صاحب المحلّ الى العازفين فصدحت موسيقى الجاز، وفي تلك الأثناء نهض الراقص المحترف الذي كان منكباً على كتابة رسالة في مؤخّرة الصالة، ودنا من الراقصة الوحيدة التي وصلت في موعدها.

- «هيّا اذهب!...».

ودسّ دلفوس شيئاً ما في كفّ رفيقه وتردّد جان في الإمساك به. كان الشرطي يراقبهما. إلّا أنّ التسليم كان يتمّ تحت الطاولة.

- «إنها الفرصة الملائمة...».

فأمسك شابو أخيراً بالأوراق النقديّة الدبقة. أبقاها في قبضته لكي لا يقوم بأي حركة مشبوهة، ونهض.

- «لحظات وأعود!...» قال بصوت مرتفع.

لم يستطع دلفوس أن يخفي معالم الارتياح التي ارتسمت على

وجهه ودون أي قصد منه حدّج رفيقه وتابعه بنظرات انتصار.

استوقف صاحبُ المحلّ جان.

ـ «انتظر ريثما أعطيك المفتاح! لم تأت الحاجبةُ بعد... ولا أعلم ماذا ألمّ بالجميع هذا المساء، إذ لم يصل أحدٌ منهم بعد!...».

كان باب القبو مفتوحاً وتتسّرب منه نسمات هواء رطب فسرت قشعريرةٌ في أوصال الشاب.

كرع دلفوس كأس البورتو بجرعة واحدة. وبدا له أن الشرابَ يُشعره بالراحة فاحتسى كأسَ رفيقه أيضاً. مكث المفتش في مكانه! إذاً نجحت المنـاورة! وما هي إلاّ هنيهات حتّى تبتلع دورة المياه أوراق البنكنوت الـمُريكة.

في تلك الأثنـاء دخلت أديل الى الصالة وقد ارتدت معطفاً من الساتان الأسود والمكنّز بالفرو الأبيض. حيّت العازفين وصافحت فيكتور.

ـ «ها أنت! قالت لدلفوس. ألست برفقة صديقك؟ لقد رأيته بعد ظهر اليوم. جاء لزيارتي. يا له من فتى غريب الأطوار! أتسمح لي أن أنزع معطفي؟...».

وضعت معـطفهـا خلف طاولة الصنـدوق حيث تبادلت بعض العبارات مع صاحب المحلّ، ثمّ عادت أدراجها إلى طاولة الشاب وجلست بقربه.

ـ «كأسان... ألديك رفقة؟».

ـ «جـان».

ـ «أين هـو؟».

ـ «هنـاك...».

وأشار الى الباب بالتفاتة.

ـ «آه حسناً! ما هي مهنة والده؟».

ـ «إنه محاسب في شركة تأمين، على ما أعتقد...».

لم تعلّق. كان جوابه كافياً. وبأية حال كانت تتوقّع مثل هذا الجواب.

ـ «لماذا اقلعت عن المجيء في سيّارتك؟».

ـ «إنها سيّارة والدي، ولا أملك رخصة قيادة. لذلك لا أقودها إلاّ حين يكون مسافراً. خلال الأسبوع المقبل سيسافر الى «الفوج». إذا شئتِ... بامكاننا أن نذهب في نزهة طويلة معاً، الى «سبا» مثلاً..؟».

ـ «من يكون هذا الرجل، هناك؟... أليس من رجال الشرطة؟».

ـ «لستُ أدري. »، تمتم قائلاً وقد احتقن وجهه.

ـ «له سحنة لا تدعو الى الاطمئنان... ولكن قل! هل أنت واثق من أن صديقـك على خير ما يرام هنـاك؟... يا فيكتور!... كأس شيري... الا تريد أن ترقص؟... ليس لأنني راغبة في ذلك، بل لأنّ ربّ العمل يُصرّ على أجواء الحركة...».

مضى على غياب شابو نحو عشرين دقيقة. وكان دلفوس يتعثر في الرقص فبادرت أديل الى ضبط حركاته تمشياً مع الايقاع.

ـ «أعذريني.. سأذهب لتفقده...».

دفع باب المغاسل. ولم يكن جان هناك. ولكنّه لمح الحاجبة تفرد أدوات التنظيف فوق فوطة نظيفة.

ـ «أرأيت صديقي؟».

ـ «لا.. لقد وصلت للتوّ...».

ـ «لعلّه خرج من الباب الخلفي؟».

ـ «كالعـادة...!».

فتـح البـاب الخلفي فطالعـه الزقاق المقفر البارد وقد أغرقته الأمطار المنهمرة ولا يشق عتمته الدامسة إلّا التماع مصباح وحيد.



-٤-

مدخّنو الغليون



كانوا أربعة في القاعة الفسيحة حيث وضعت طاولات كسيت بالورق النشّاف بمثابةِ مكاتب. والمصابيح حجبت بواقيات من الكرتون الأخضر. أما الأبواب فمشّرعة على حجرات خالية.

كان الوقت مساءً. والحاضرون فقط من رجال الأمن، يجلسون ويدخنون غلايينهم. أحدهم، أصهب الشعر ضخم الجثة يُدعى الكوميسير دلفيني كان جالساً عند طرف إحدى الطاولات ومن حين لآخر يمسّدُ شاربيه بحركة عفوية من يده. مفتّش شاب يرسمُ أشكالاً مختلفة على الورق النشاف. أما ذاك المُستغرق في كلامه فرجلٌ قوي البنية قصير القامة، ريفي اللكنة تبدو على مظهره سمات الفلّاحين.

ـ «سبعة فرنكات للقطعة الواحدة إذا اشتريتها بالدزّينة! ثمن الواحدة منها لا يقل عن عشرين فرنكاً في أي متجر لبيع المفرّق... غلايين جيّدة خالية من أي عيب... أليس كذلك!... صهري يعمل في الفبركة في آرلون».

ـ «بإمكاننا أن نوصي على دزينتين لرجال المفرزة».

ـ «لقد كتبت لصهري بهذا الشأن. وللمناسبة لقد أهداني، وهو

إبنُ المهنة، حافظة جلدية رائعة لحفظ الغليون...».

كان الكوميسير يؤرجحُ إحدى ساقيه في الفراغ. والجميع يصغون الى الحديث بانتباه. ويدخنون. وفي النور الشاحب الذي كانت تبثه المصابيح تفشت سُحُبٌ من الدخان المائل الى الزرقة.

- «بدل أن تحشوها كيفما اتفق، عليك أن تمسك بمحرق الغليون على هذا النحو...».

فتح الباب ودخل منه رجل يدفع برجلٍ آخر أمامه. التفت الكوميسير نحو الوافدين الجديدين وسأل:

- «أهذا أنت يا بيرونيه؟».

- «هذا أنا أيها القائد!».

ثمّ مخاطباً خبير الغلايين: «هيا أسرع...».

كانوا قد أبقوا الشاب واقفاً بمحاذاة الباب وسمع كلَّ ثرثرتهم حول أصول حفظ الغلايين.

- «أتريد غليوناً أنت أيضاً؟ سُئِلَ بيرونيه. غلايين من خشب الخلنج الأصلي بسبعة فرنكات فقط وكل ذلك بفضل صهري الذي يعمل في الفبركة في آرلون...».

ثمّ قال الكوميسير دون أن يبدّل مكانه:

- «اقترب قليلاً يا بني!».

كان يخاطب جان شابو الذي بدا ممتقع الوجه، شاخص العينين كأنه على حافة نوبة عصبيّة. وكان الآخرون ينظرون اليه

متـابعـين أحاديثهم وتدخينهم، حتّى أنهم تبادلوا دعابةً ما فيما بينهم جعلتهم يستغرقون في الضحك.

ـ «أين عثرت عليه، يا بيرونيه؟».

ـ «في «الغيه مولان»... وفي الوقت المناسب!... في اللحظة التي كان يهمّ فيها برمي الأوراق النقدية في جُرْن المرحاض...».

لم يُثـر هذا التصريـح دهشة أحدٍ من بين الحاضرين. وتلفّت الكوميسير من حوله.

ـ «من سيتولّى تحرير الأوراق الرسميّة؟».

فجلس أصغرهم سناً الى إحدى الطاولات ووضع أمامه أوراقاً مطبوعة حسب الأصول المرعيّة.

ـ «الكنية، الإسم، السنّ، المهنة، العنوان، الأحكام السابقة... هيا! أجب...».

ـ «شابو، جان جوزيف أميل، موظف، ٥٣، شارع لا لوا...».

ـ «لا أحكام سابقة؟».

ـ «لا!».

كانت الكلمات تخرج بصعوبة من حلقه الجاف المنقبض.

ـ «الأب؟».

ـ «شابو، اميل، محاسب...».

ـ «لا أحكام سابقة أيضاً؟».

ـ «لا!».

ـ «والأم؟».

ـ «اليزابت دوايين، إثنان وأربعون عاماً...».

لم يكن أحدٌ يصغي. إنه القسم الإداري من الاستجواب. أشعل الكوميسير ذو الشاربين الأصبهين غليوناً وراحَ يذرع القاعة جيئةً وذهاباً، ثمّ سأل أحدهم:

ـ «هل تولّى أحدكم قضية الانتحار في رصيف كورنموز؟».

ـ «لقد تولّاها جيربير!»

ـ «حسناً! والآن دورك أيّها الفتى... وإن شئت أن تسمع نصيحة مفيدة، حاول أن لا تلعب دور المتذاكي!... لقد كنت ليلة أمس في الغيه مولان برفقة المدعو دلفوس الذي سنتولّى أمره فيما بعد. وكنتما لا تملكان ما تسدّدان به ثمن طلباتكما وكنتما مَدينين بطلبات سابقة... هل هذا صحيح؟».

فتح جان شابو فمه ثمّ أغلقه دون أن ينبس بكلمة.

ـ «أسرتك ليست ثرية. وأنت لا تكسب الكثير. إلّا أن هذا لم يحل دون اسرافك وأصبحت مديناً بالمال لعددٍ كبير من الناس... أليس صحيحاً ما أقول؟».

أطرق الفتى وهو يشعر بأن أعين الرجال الخمسة شاخصةٌ فيه.

كانت نبرة الكوميسير هادئة لا تخلو من بعض الاحتقار.

ـ «حتّى صاحب دكّان السكائر! لأنّك حتى يوم أمس كنت لا تزال مديناً له بالمال... كما ترى، أنت لستَ أوّل المفلسين الذين يرغبون في عيش الترف دون أن يمتلكوا الإمكانات الفعلية لذلك... كم مرّةً اختلستَ مالاً من محفظة أبيك؟...».

تبدّل لون جان الى الأحمر القاني فالعبارة التي أطلقها الكوميسير كانت أشدّ وقعاً عليه من صفعة! والأسوأ من ذلك كلّه أنها صحيحة وغير عادلة في الوقت نفسه.

ففي آخر الأمر كلّ الذي قاله الكوميسير لا يخلو من الصحة. ولكنّ الحقيقة حين تُعلن على هذا النحو، جهاراً، دون التفات للتفاصيل، لا تعودُ هي نفسها الحقيقة.

لقد بدأ شابو يحتسي أكواب البيرة برفقة أصدقاء في مقهى الـ «بيليكان». واعتاد على شرب البيرة كلّ مساء، لأن رفقة الشراب في المقهى كانت توفّر له جوّاً من الصداقة الحميمة.

وكان على كلّ واحد منهم أن يدفع دورةً كاملة عن الآخرين. وكل دورة بستة أو عشرة فرنكات.

وكانت تلك ساعات الغبطة الحقيقية! بعد ساعات العمل في المكتب وتوبيخات المساعد الأوّل، أن يكون هناك، في أفخم مقاهي المدينة، يتأمّل المارّة في شارع بون دافروي ويصافح أيدي الأصدقاء مرحباً ويتأمل النساء الجميلات اللائي يأتين أحياناً لمجالستهم.

ألم تكن «لييج» بأسرها في متناول يده؟

كان دلفوس يدفع أكثر من سواه، لأنّه الأوسع ثراءً.

ـ «لماذا لا نقصد الغيه مولان هذه الليلة؟... هناك راقصة فاتنة...».

كان الأمر يَعدُ بإثارة أكبر. المقاعد الحمراء. أجواء الصالة الكتومة الدافئة المعطّرة، والموسيقى ومودّة فيكتور، وخصوصاً مودّة

النساء بأكتافهنّ العارية اللواتي يحسرنَ أثوابهنّ عالياً لشدِّ أربطة جواربهنّ

وهكذا تحوّلت العادة تدريجياً الى حاجة. ومرّة واحدة، اختلس جان مالاً لأنه لم يرد أن يدع الآخرين يسدّدون ثمن شرابه. اختلس مالاً ولكن ليس من المنزل بل من حساب المصروفات النثرية. زاد على كلفة ارسال بعض الطرود بالبريد المضمون ما لا يفوق العشرين فرنكاً!

- «لم أسرق مال والدي أبداً».

- «أنت محقّ، فلا بدّ انه لا يملك ما يستحق السرقة!.. لنَعُد الى سهـرة الأمس.. كنت برفقـة صديقـك في الغيه مولان... وكنتما مفلسين... ومع ذلك قدّمتما شراباً لراقصة!... أعطني علبة سجائرك...».

فأعطاه الفتى العلبة دون أن يدرك قصده.

- «سجائر «لوكسور» مفلترة... أليس كذلك يا دوبوا؟».

- «بلى، بالضبط!».

- «حسناً إذاً! ويصادف في الليلة نفسها وجودَ رجلٍ تبدو عليه معالم الثراء ويحتسي الشمبانيا ولا بدّ أنّ محفظته تكتنز بأوراق البنكنـوت .. وبخـلاف عادتكمـا تخـرجان من الباب الخلفي... والحالُ، أنّ اليوم عُثر عند درج القبو، قرب هذا الباب، على عقبي سيكـارة وآثـار أقـدام تؤكـد أنكما بدل أن تغادرا المكان آثرتما الاختباء هناك.. ثمّ قتل الغريب... في الغيه مولان أو في مكانٍ آخر... وسرقت محفظته... وكذلك علبة سجائره الذهبيّة... وها أنت اليوم

تسدّد ديونك!... وهذا المساء بالذات، إذ تشعر بأنك مطارد تحاول أن تتخلص من النقود عبر رميها في المراحيض...»

كان الكوميسير يتلو هذه الوقائع بنبرة محايدة كأنّه يكاد لا يأخذ القضيّة على محمل الجدّ.

كان شابو يحدّق بثباتٍ في أرضية القاعة.

ـ «أين هاجمت غرافوبولوس؟... في الملهى الليلي؟... أو بعدما غادره؟...».

ـ «لم أفعل! قال جان صارخاً. أقسمُ لك بحياة والدي..».

ـ «هيا دعكَ من هذا! دع والدك وشأنه! فما سبّبته له حتى الآن أكثر من كافٍ...».

وما لبثت هذه العبارات أن أثارت لديه رعدة تشنج. وراح جان يحدّق في ما حوله بنظرات هلع. في تلك اللحظة فقط أيقن حقيقة الوضع الذي وجد نفسه متورطاً فيه. وأيقن أنّ والديه سيعلمان بكل ما جرى في غضون ساعة أو ساعتين!

ـ «غير معقول! غير صحيح! لا أريد!» صرخ قائلاً.

ـ «رويدك أيّها الفتى!».

ـ «لا أريد! لا أريد! لا أريد!...».

وانقضّ على المفتش الذي كان بين الباب وبينه. لم يستغرق العراك إلاّ هنيهة. فقد كان الفتى لا يعرف حتى ماذا يريد بالضبط. فقد السيطرة على نفسه. واستبدّت به نوبة فواق ممزوجة بالنحيب. وفي آخر الأمر ارتمى أرضاً وراح يتململ ويضغط بذراعيه على صدره دون أن يكفّ لحظة عن الأنين.

كان الآخرون يواصلون تدخين غلايينهم ويتبادلون النظرات الغامزة.

- «كوب ماء يا دوبوا!... مَن يحمل تبغاً؟...».

سكب كوب الماء على وجه شابو الذي استحالت نوبة التوتر العصبي لديه الى نوبة بكاء. وكان يحاول أن يضغط بأصابع يديه على عنقه، بقوّة.

- «لا أريد!... لا أريد!...».

هزّ الكوميسير كتفيه وغمغم قائلاً:

- «كلّهم سواءٌ، هؤلاء الفتيان السفلة... وبعد قليل علينا أن نستقبل الأب والأم!...»

كان الجوّ السائد أشبه بأجواء مستشفى حيث اجتمع عدد من الأطباء حول مريض يُعاني سكراتِ الموت.

كانوا خمسة رجال يتحلقون حول فتى، حول صبي، خمسة رجالٍ بلغوا من العمر عتياً، وخبروا التجارب الأكثر اشفاقاً فلا يثيرهم المشهد الذي يجري أمامهم.

- «هيّا! انهض!» قال الكوميسير بنفاد صبر.

فأطاعه شابو مستسلماً. لقد خارت قواه وأنهكت النوبة العصبيّة قدرته على الاحتمال. كان يتلفت من حوله هلعاً كحيوانٍ يستسلم بعد مقاومة لقدره المحتّم.

- «أتوسّل اليك...».

- «أخبرنا من أين أتيت بالمال!».

ـ «لا أدري... أقسم لك... أنا...».

ـ «كفّ عن حلفانك هذا!».

كانت بدلتــه الســوداء قد تبقّعت بالغبار. وعندما مسح عينيه بيديه الوسختين بدت آثار خطوط رمادية على وجنتيه.

ـ «إن والدي مريض... مصــابٌ بمرض القلب... لقد أصيب بنوبة قلبية في العام الماضي ونصحه الطبيب بأن يتجنب الانفعالات الحادّة...».

كان يتكلم بنبرة رتيبة وبدا ذاهلاً.

ـ «كان عليك أن تبتعد عن ارتكاب الحماقات، يا صغيري!... والآن ينبغي أن تتكلم... من قام بالاعتداء؟ أنت؟... أم دلفوس؟... هو الآخــر لن ينجــو من فعلتــه!... فإذا كان هنــاك ينبغي أن يُستجوب، لا بدّ أن يكون هو...»

دخــل شرطي آخــر وألقى التحيّة مبتهجاً ثمّ جلسَ الى احدى الطاولات حيث راح يقلب صفحات ملفّ.

ـ «هــاكَ أيّهــا الفتى، إنّــه الدرس المــلائم!... هيا اجلس الى الطاولة! فهذا أفضل ما يمكن أن تفعله... فقد يكون بوسعنا أن نطلعك على حقيقة الأمر...».

رن الهاتف. فصمت الجميع باستثناء أحد المفتشين الذي رفع السماعة.

ـ «آلو! أجل... حسناً!... قل له ان عربة الإسعاف ستصل عمّا قريب...».

ومخاطباً الآخرين بعد إقفاله الخط:

ـ «بشأن الخادمة التي انتحرت. ذلك أن مخدومها يستعجل نقل الجثة...».

ـ «لم أقتل.. حتّى أنني لم أكن أعلم...».

ـ «حسناً! أقرّ بأنك لم تقتل...».

وفي تلك الأثناء بدت لهجة الكوميسير على شيءٍ من التعاطف الأبوي.

ـ «ولكنْ على الأقل تعرف شيئاً ما بهذا الشأن... فالمال لم يأتِ من تلقائه الى جيبك... بالأمس كنت لا تملك مالاً واليوم أصبحت تمتلك الكثير منه... وأنتم هناك ماذا تفعلون، أعطوه كرسيّاً...».

ذلك أن شابو كان يترنّح في وقفته إذ ما عادت ساقاه تحملانه. وتهالك على الكرسيّ وقد أسندَ رأسه الى كفيه.

ـ «لا تتعجل الإجابة... خُذ وقتك كلّه... وأقنع نفسك انها الوسيلة الوحيدة للخلاص من هذا المأزق... وبأية حال، أنت لم تبلغ بعد السابعة عشرة.. وستمثل أمام محكمة الأحداث وسوف تودع الإصلاحية لا السجن...».

وراودت شابو فكرة مباغتة فتلفّت من حوله بعينين بدتا أقل اضطراباً. وحدّق في جلّاديه الواحد تلو الآخر. ولم يجد بينهم من يشبه الرجلَ ذا المنكبين العريضين...

فهل اخطأ بشأنه؟ هل كان الرجل المجهول من رجال الشرطة حقاً؟ وماذا لو كان هو القاتل؟ لقد كان في الغيه مولان ليلة أمس. ومكث هناك بعد مغادرة الشابين!

وماذا لو أنه تعقَّب أثرهما عمداً لكي يوقع بهما بدلاً منه؟

ـ «أعتقـد أنني فهمتُ الآن!... صرخ قائـلاً وقـد ملأ الرجاء قلبـه .. أجل، أعتقد أنني أعرف القاتل . إنه رجل طويل القامة ضخم الجثة، حليق الوجه...».

هزَّ الكوميسير كتفيه، إلّا أن هذا لم يُحبط اندفاعة شابو

ـ «لقد دخل الى الغيه مولان بعد دخولِ التركي مباشرةً. كان بمفرده... واليوم شاهدته مجدّداً، وكان يتعقبني... حتّى أنه قصد صاحبة متجر الخضار للسؤال عني...»

ـ «ما هذا الهراء الذي يقوله؟».

غمغم المفتش بيرونيه قائلاً:

ـ «لا أدري بالضبـط، ولكن بالفعل لقد دخل الى الغيه مولان زبون لا يعرفه أحد...».

ـ «ومتى غادر؟».

حدَّج الكـوميسير شابو الذي عاوده الرجاء بنظراتٍ فاحصة، ولكنّه لم يُعره اهتماماً. وخاطب الآخرين قائلاً:

ـ «في آخر الأمر، كيف كان ترتيب مغادرة الزبائن بالضبط؟».

ـ «كان الشابان أوّل المغادرين.. أو على الأقل تظاهرا بالمغادرة، لأنّه من الثابت لنا أنهما مكثا مختبئين في القبو... ثمّ الراقص وتلاه العـازفون .. وعندما أقفل الملهى أبوابه اصطحب الرجل المعني أديل التي تعمل في الملهى...».

ـ «لم يبق إذاً إلّا صاحب المحلّ وغرافوبولس والنادلان...».

ـ «أقصد أحدهما، فالمدعو جوزيف كان قد غادر مع العازفين..».

ـ «إذاً صاحب المحلّ ونادل واليوناني...».

ـ «والشابان في القبو...».

ـ «ما هي أقوال صاحب المحلّ؟».

ـ «يقول إنّ الزبون غادر في تلك اللحظة وإنه عمد بمساعدة فيكتور الى إطفاء الأنوار وإغلاق الأبواب...».

ـ «وبعد ذلك ألم يلمح أحدٌ الرجلَ الذي يتحدّث عنه شابو؟».

ـ «لا! لقد وصفوه لي أيضاً على أنه طويل القامة عريض المنكبين... يُعتقد أنه فرنسي، لأنه لا يمتلك لهجة الأهالي...»

تثاءب الكوميسير طويلاً وأبدى شيئاً من نفاد الصبر في طريقته العصبيّة بحشو غليونه.

ـ «اتصلوا إذاً بالغيه مولان واسألوا جيران عمّا يجري هناك...».

كان شابو ينتظر قَلِقاً. لقد بدت له تلك اللحظات أشدّ هولاً من سابقاتها، لأنّه بات يأمل بالخلاص. ولكنّه يخشى أن يكون مخطئاً.

كان خوفه قد أصبح مؤلماً، تشبثت أصابع يديه بحافة الطاولة وزاغت عيناه بين الحاضرين وخصوصاً جهاز الهاتف.

ـ «آلو!... الغيه مولان، من فضلك يا آنسة...».

وما كان من الشرطي، سمسار الغلايين، إلّا أن سأل الآخرين:

ـ «إذاً اتفقنا، سأكتبُ الى صهري لأوصيه على الكميّة؟..

وللمنـاسبـة ماذا تفضلون الغلايين ذات المباسم المستقيمة؟ أم الأخرى ذات المباسم المعوجّة؟...».

ـ «المستقيمة!» أجاب الكوميسير.

ـ «إذاً، سأطلب دزينتين من الغلايين ذات المباسم المستقيمة... ولكن قُل لي، أمـا زلتم في حاجة إليّ؟... إنّ ابني الصغير مصابٌ بالحصبة و ..».

ـ «بإمكانك أن تغادر».

وقبل أن يغادر ألقى شرطي نظرة أخيرة على جان شابو وسأل رئيسه بصوتٍ خفيض:

ـ «أستبقيه في الحجز؟».

وحـاول الشـاب الذي سمع السؤال أن يخمّن الجواب وبدا مشدود الأعصاب متوجساً.

ـ «لا أعرفُ بعد... وفي كل الأحوال سنبقيه حتّى الغدْ... وبعد ذلك فإن النائب العام هو الذي يقرّر...».

تبـدّد كلُّ أمـل. فتراخت عضلات جان المشدودة. فأن يطلق سراحه في اليوم التالي يعني أنّ الخلاصَ يأتي متأخراً. سوف يعلم والداه بالأمر! إذ لا بدّ أنّهما أصبحا قلقين ينتظران عودته!.

إلّا أنه ما عادَ قادراً على البكاء. لقد تهالك جسده وهناً. وتناهت اليه المحادثة الهاتفية مشوّشة، غير واضحة.

ـ «جـيرار؟... إذاً، ماذا يفعـل هنـاك؟... ماذا؟... يترنّح من السُكـر؟... أجـل، إنـه لا يزال هنـا... لا!... إنـه ينكر كل شيء بالطبع!... انتظر قليلاً، سأسأل الرئيس...».

ومخاطباً الكوميسير.

ـ «جيرار يسأل عمّا ينبغي أن يفعله. فالشاب سكرانٌ مُتعتع... لقد طلب الشمبانيا ويشرب برفقة الراقصة التي لا تبدو في حالٍ أفضل... هل يُلقي القبض عليه؟».

نظر الرئيس الى جان وأطلق تنهيدة عميقة.

ـ «لدينا واحد هنا.. لا! ليدعه وشأنه... مَنْ يدري. ربّما ارتكب هفوةً ما... على أن لا يفارقه جيرار لحظة واحدة!... وليتصل بنا فيما بعد...».

*

* *

جلس الكوميسير على الكنبة الوحيدة في الحجرة، وأغمض عينيه مسترخياً فبدا وكأن النعاسَ قد غلبه. غير أن خيط الدخان الرفيع الذي كان يتصاعد من غليونه برهن، بما لا يحتمل الشك، بأنّ مظهر النوم خادع.

في الناحية الأخرى كان أحد المفتشين يطلع جان شابو على محضر الاستجواب. فيما انشغل مفتش آخر بذرع أرض القاعة بخطواته منتظراً بفارغ الصبر حلول الساعة الثالثة لكي يذهب الى النوم.

بدأت أجواء القاعة تميل الى البرودة. حتى الدخان كان يبدو بارداً. ولم يستطع الشاب أن ينام. كانت أفكاره مشوشة. فجلس مرتفقاً حافة الطاولة، وما إن يغمض له جفن حتّى يتعمّد فتح عينيه

من جديـد. وفي كلّ مرّة تطالعُ عينيـه تلك الورقة ذات الترويسة الحكومية حيث كُتب بحروفٍ أنيقة:

«لقـد حرر محضر الضبـط في حقّ جوزيف دو موروا، العامل المياوم، المقيم في فليمال هوت، لإقدامه على سرقةِ أرانب...».

أمّا بقية النصّ فقد حجبتها ورقة نشاف وضعت عليها.

رنّ الهاتف، فهرع المفتش الذي يذرع القاعة جيئةً وذهاباً لرفع السمّاعة.

ـ «أجل... حسناً!... حسناً!... سأخبره!... إنّه يمضي أوقاتاً ممتعة!...».

واقترب من الرئيس:

ـ «إنـه جيرار... لقـد استقـل دلفوس والراقصة سيّارة أجرة أوصلتهما الى منزل أديل في شارع لا ريجانس... وصعدا معاً... جيرار هناك يواصل المراقبة...».

على الرغم من الغمامة الزهرية التي تلبّدت في رأسه كان جان يتخيل غرفة أديل؛ السرير الذي رآه في حالة فوضى والراقصة التي تخلع ملابسها وتشعل السخّان...

ـ «والآن أليس لديـك فعلاً ما تقوله؟» سأله الرئيس دون أن يغادر الكنبة.

لم يجب. كان عاجـزاً عن الإجابة. وبالكاد أدرك أن السؤال موجه اليه.

زفرة عميقة انطلقت من صدر الكوميسير قبل أن يقول مخاطباً المفتش

- «بامكانك أن تغادر! فقط اترك لي بعض التبغ..

- «أتعتقد أنك ستتوصل الى شيءٍ ما؟».

وأشار بعينيه الى خيال جان الداكن الذي انحنى فوق الطاولة.

ومجدّداً هزّ الكوميسير كتفيه.

وثقب هائل في ذاكرة جان. ثقب أسود تمتزج فيه الأشكال الغامضة التي تخترقها التماعات حمراء دون أن تضيء شيئاً منها.

ثمّ رفع رأسه مذعوراً وقد أيقظه رنين ملحاح. فرأى ثلاث نوافذ كبيرة باهتة ومصابيح شاحبة الإضاءة، والكوميسير الذي يفرك عينيه ويتناول بحركة عفوية غليونه المطفأ عن الطاولة ويتقدّم نحو الهاتف وكأنّ خدراً يشلّ ساقيه

- «آلو! أجل!... آلو!... دائرة الأمن، أجل!... ولكن لا، يا صديقي.. إنه هنا... ماذا؟ فليأتِ للتثبت منه إذا كان هذا ما يرضيه...»

ثمّ أشعل الكوميسير ذو الفم المبنّج غليونه وأخذ أنفاساً متتالية عميقة قبل أن يقف قبالة شابو.

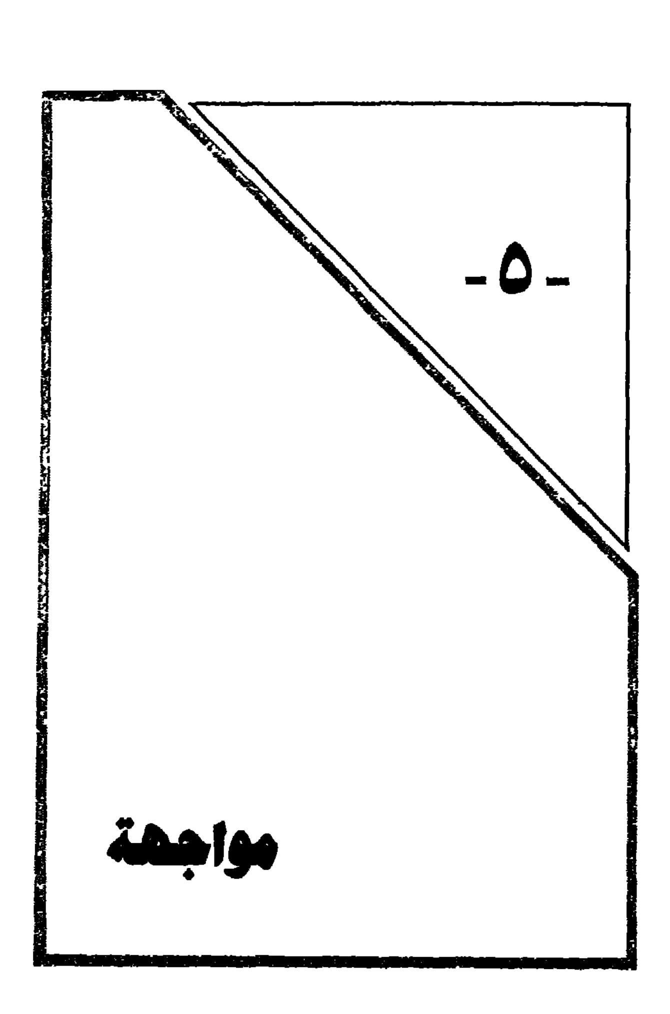
- «إنه والدك؛ لقد بلغ مركز الدائرة السادسة عن اختفائك.. وأعتقد أنه سيأتي».

فجأة انعكست أشعة الشمس فوق زجاج النافذة فدلف الضوءُ فظاً وشرساً، فيما دخل رجال الخدمة يحملون الدلاء والفراشي لتنظيف المكان.

أصـداء جلبة غائمة كانت تتناهى من ناحية السوق على بعد مئتي متر قبالة مبنى البلدية. وعبرت الحافلات الصباحية الأولى مطلقة رنينها كأنها توقظ المدينة عمداً.

وكان جان شابو معتكر العينين زائغ النظرات يمرّر أصابع يده بين خصلات شعره.




- ٥ -
مواجهة



سَكَتَ النَفَسُ الأجشُّ حين فتح دلفوس عينيه ولم يلبث أن جلس على قفاه وألقى من حوله نظراتٍ هَلِعة.

كانت ستائر النافذة مرفوعة والمصباح الكهربائي مضاءً مازجاً بصيصه الشاحب بضوءِ النهار وكانت جلبة المدينة المستيقظة تتناهى الى مسامعه من الشارع.

على مقربةٍ منه، وتائر تنفّس منتظم. إنها أديل، نصف عارية مستلقيةً على بطنها وقد غمرت وجهها بالوسادة. كان جسدها يشيع دفئاً لزجاً. وفي احدى قدميها فردة حذائها ذي الكعب العالي الذي ينغرزُ في غطاء الفراش الحريري المذهب.

كان رينه دلفوس متوعكاً. وأحسَّ أن ربطة عنقه تحزّ رقبته. نهض بحثاً عن الماء فوجد شيئاً منه في الابريق ولكنّه لم يعثر على كوب. فشربَ الماء الفاتر من الإبريق بنهم، ثمّ تأمل وجهه طويلاً في مرآة المغسلة.

كان ذهنه مشوّشاً بليداً، لا تحضره الذكريات إلّا واحدة تلو الأخرى وببطءٍ مشوبٍ بهفوات النسيان. فهو مثلاً لا يذكر كيف وصل الى هذه الغرفة. نظر الى ساعته. كانت عقاربها واقفة إلّا أن

حركة الشارع تشير الى أن الوقت قاربَ التاسعة صباحاً على الأقلّ، إذ فتحت أبواب المصرف الذي يقع في الجهة المقابلة من الشارع.

ـ «أديل!...» نادى رفيقته النائمة لكي يطرد عنه إحساسه بالوحدة.

تقلّبت أديل في سريرها واستقرّت على جنبها، لكنّها لم تستيقظ.

ـ «أديل!. . يجب أن أكلّمك...».

كان يتأملها دون أي إحساس بالرغبة. لا بل ربّما أثار لديه بياض بشرةِ المرأة في تلك اللحظة بعض الإشمئزاز.

فتحت عيناً وهزّت بكتفيها ثمّ استغرقت في النوم مجدّداً. وكان دلفوس يزداد توتراً وعصبيّة كلّما صحا ذهنه وانتظمت أفكاره إذ زاغت عيناه وراح يقلّبُ نظراته في أرجاء المكان. سار في اتجاه النافذة، وشاهد على الرصيف المقابل مفتّش الشرطة الذي كان يتمشى جيئةً وذهاباً دون أن يغفل لحظة واحدة عن الباب.

ـ «أديل!... استيقظي بحق السماء!...».

كان يشعر بالخوف! لا بل كان مذعوراً! فأمسك بسترته التي كانت ملقاة على الأرضيّة وعندما ارتداها تلمّس جيوبه بحركةٍ عفوية. ووجدها خالية حتّى من فلسٍ مثقوب.

كرع مجدّداً جرعاتٍ من الماء فنزلت ثقيلةً حامضةً على معدته المتوعّكة. ولوهلةٍ شعر بحاجة للتقيؤ وأن التقيؤ قد يريحه، لكنّه لم يستطع.

كانت الراقصة لا تزال غارقةً في نومها بشعرها المشعّث ووجهها اللزج اللامع. نوم عنيدٌ وعميق يستغرقها كأنّها في حالةِ إغماء.

انتعل دلفوس حذاءه ولـمَحَ حقيبة رفيقته على الطاولة. وعندئذٍ راودته فكرة ما. تثبّت أوّلاً من أنّ الشرطي لا يزال في الخارج. ثمّ انتظر قليلاً ريثما تنتظمُ أنفاس أديل.

فتـح الحقيبـة دون أن يحدثَ جلبة. ووجدَ فيها، إضافةً الى أصابع الحمرة وعلب البودرة وبعض الرسائل القديمة، تسع مئة فرنك دسّها في جيبه دون تردّد.

لم تحرّك ساكناً، فمشى نحو الباب على رؤوس أصابع قدميه. ثمّ هبط الدرج ولكنّه بدل أن يخرج فوراً الى الشارع سار نحو الفناء الداخـلي. كان الفنـاء ملحقاً بمتجر الخرضوات وقد كدّست فيه الصنـاديق الفـارغـة والبراميل. وفي طرفه باب صغير يفضي الى شارعٍ آخر حيث يقف بعض الشاحنات.

كان على دلفـوس أن يبـذل جهداً كبيراً لكي لا يُطلقَ لساقيه العنان. ولم تنقض نصف ساعة حتّى وصلَ، مكسوّاً بالعرق، الى محطة «غيلومان».

*

* *

صافح المفتش جيرار يد زميله الذي اقترب منه.

ـ «ما الأمر؟».

ـ «يريد الكوميسير أن تُحضر الشاب والراقصة. وهذه مذكرة التوقيف».

ـ «هل اعترف الآخر؟».

ـ «إنه ينكر كل شيء! أو الأحرى يروي قصةً ما حول مبلغ من المال سرقه صديقه من متجر شوكولاته. والداه هناك. ومنظرهما لا يدعو الى السرور...».

ـ «أترافقنـي؟».

ـ «لم يوضح الرئيس هذا الأمر... فلمَ لا؟...».

ودخلا الى العمارة وطرقا باب الغرفة. لم يجب أحد. وعندئذٍ أدار المفتش جيرار المقبض ففتح الباب فاستيقظت أديل فجأة كما لو أنّها أحسّت بالخطر الوافد، فرفعت جذعها واستندت الى الفراش بمرفقيها وسألت بنبرةٍ متثاقلة:

ـ «ما الأمـر؟».

ـ «الشرطة! لدي مذكرة بتوقيفكما أنتما الإثنين».

ـ «ولكن، سحقاً، أين ذهب الفتى!...».

راحت تبحث عنه، هي أيضاً، مُتلفتةً في الأرجاء، فيما نهضت من سريرها. ثمّ مدفوعةً بحدسٍ غامض نظرت الى حقيبة يدها على الطاولة وهـرعت نحـوهـا إذ رأت أنهـا مفتـوحـة وراحت تبعثر محتوياتها بحركات عصبيّة حانقة:

ـ «النذل! لقد فرَّ بعد أن سطا على نقودي!...».

ـ «أكنتِ تجهلين أنه غادر الغرفة؟».

ـ «كنت نائمـة... لكنّـه لن ينجو بفعلته!... أرأيت ماذا يفعل هؤلاء الأوغاد أبناء الأثرياء!...»

كان جيرار قد لفته وجود علبة سجائر ذهبيّة على المنضدة قرب السرير.

ـ «لـمن هـذه؟».

ـ «لقد نسيها هنا... لقد رأيته يحملها، مساءَ أمس...».

ـ «هيّا، ارتدي ثيابك!».

ـ «أيعني هذا أنني قيد الاعتقال؟».

ـ «لدي مذكـرة جلب في حقِّ المـدعوة أديل بوسكيه، ومهنتها راقصة. أحسب أنّها أنتِ، أليس كذلك؟».

ـ «حسنـاً!».

لم تُبدِ أيّاً من مظاهر الذعر. إذ بدت وكأنها لا تبالي كثيراً بمذكرة الجلب بل بالسرقة التي تعرّضت لها على يدِ الفتى الهارب. وكانت تردّد مراراً في غمرة انهماكها بتسريح شعرها.

ـ «النذل!... وأنا... أستغرق في النوم كالبلهاء!...».

كان الشرطيان يجيلان أنظارهما في الأنحاء ويتبادلان الغمز والتلميحات.

ـ «أتعتقدان أن الأمر سيطول بي هناك؟ سألتهما. ففي مثل هذه الحال ينبغي أن أحمل معي بعض الملابس الداخلية النظيفة...».

ـ «لا نعرفُ شيئاً! لقد تلقينا الأمر...».

هزت كتفيها وتنهّدت قائلةً:

ـ «بأية حال، أنا لم أقترف أي ذَنْب!».

ثمّ سارت نحو الباب وأردفت قائلة:

ـ «إني في انتظاركما... لديكما سيّارة على الأقل، أليس كذلك...

لا؟.. إذاً أفضل أن أسير بمفردي.. وما عليكما إلا أن تلحقا بي...».

وأقفلت حقيبتها بحركة غاضبة ثمّ حملتها فيما كان المفتش يدسُّ علبة السجائر المذهبة في جيبه.

ومن تلقائها، ما إن خرجت من الباب، حتى سارت في اتجاه مركز الشرطة حيث دخلت دون تردّد ولم تقف إلّا عند مدخل الرواق العريض.

ـ «من هنا! قال جيرار. لحظة واحدة! سأسأل الرئيس إذا...».

لم تفلح المناورة. دخلت على الفور! وما إن أصبحت في الداخل حتّى اتضح لها الموقف جليّاً. كانوا في انتظارها من دون شك. لأنّ أحداً لم يعترض على دخولها المفاجيء. كان الكوميسير ذو الشاربين الأصبهين يذرع أرض الغرفة جيئةً وذهاباً. أما شابو فيحاول، مُرتفقاً حافة أحد المكاتب، أن يأكل سندويشاً كانوا قد أحضروه له. فيما انتحى والده إحدى الزوايا ومكثَ مُطرقاً.

ـ «والآخر؟...» قال الرئيس حين رأى أديل برفقةِ جيرار.

ـ «رحل! لا بدّ أنه تسلّل من باب خلفي! وتدّعي الآنسة أنّه حمل معه كلّ النقود التي كانت في حقيبتها...».

مكث شابو لا يجرؤ على النظر الى أيٍّ منهم.

ـ «محترفا نذالة، أيّها الكوميسير!... كم كنت حمقاء حين أردت أن أعاملَ أوغاداً من هذا القبيل بمودّةٍ ولطف...!».

ـ «مهلاً! مهلاً! فقط أجيبي عن سؤالي!».

ـ «وبرغم ذلك لقد سطا على كلّ مدخراتي!».

ـ «أرجوكِ، الزمي الصمت».

دنـا جيرار من الكوميسير وهمسَ في اذنه قبل أن يعطيه علبة السجائر المذهّبة.

ـ «أخبريني أوّلاً ما الذي أتى بهذا الشيء الى غرفتك؟ أحسب أنـك تعـرفــين جيّداً ما هو. لقد أمضى غرافوبولوس ليلته الأخيرة برفقتـك. وقـد استخـدم هذه العلبـة مراراً وقد استرعت انتباه الكثيرين. أهو من أعطاكِ إيّاها؟».

نظرت الى شابو ثمّ الى الكوميسير وقالت جازمةً:

ـ «لا!».

ـ «إذاً ما الذي أتى بها الى غرفتك؟».

ـ «إنه دلفوس...».

فجأةً رفع شابو رأسه وأراد أن ينقضّ عليها، وشرع يصرخ.

ـ «غير صحيح... إنها...».

ـ «أنتَ، عُد الى مكانك!... تقولين يا آنسة إنَّ رنيه دلفوس هو الذي كان يحمل العلبة. أتدركين خطورة هذا الاتهام؟».

فأجابت هازئةً:

ـ «وكيف لا أدرك ذلك!... فهو لم يتورّع عن سرقة النقود التي كانت في حقيبتي، أليسَ...».

ـ «وهل تعرفينه منذ مدّة طويلة؟».

ـ «منذ ثلاثة أشهر ربّما... منذ أن راح يتردّد على الفيه مولان

كلّ مساءٍ تقريباً برفقةِ هذا الصوص... زمرة بائسين! كان يجدر بي أن أحترس منهما... ولكن أنت تعلم جيداً كيف تجري مثل هذه الأمور... وجدتهما فتيين!.. وحسبتُ أن مجالستهما قد تخفّف عني عبء العمل... كنت أعاملهما كصديقين!... وحين يقدّمان لي كأساً كنت أحرص على أن تكون من أرخصِ الأنواع...».

كانت نظراتها تنضح بالقسوة والجفاء.

ـ «لقد كنت عشيقة الإثنين معاً؟».

فأطلقت قهقهات لها معنى.

ـ «لم نصل الى هذا الحدّ!... هذا ما كانا يرغبان فيه من دون شك... لكنّهما لم يمتلكا الجرأة الكامنة لمصارحتي بهذا الشأن. كانا يأتيان إلي كلٌّ بمفرده، متذرعين بأعذارٍ مختلفة، لكي يسترقا النظر إلي حين أبدّل ملابسي...».

ـ «وليلة الجريمة، هل شربتِ الشمبانيا برفقة غرافوبولوس. وهل اتفقتما على أن تلتقيا بعد السهرة؟».

ـ «مَن تحسبني؟... أنا راقصة...».

ـ «لا بل ساقية زبائن... والجميع يعرف ما معنى ذلك... هل غادرت برفقته؟».

ـ «كـلا!».

ـ «هل ساومك على أمرٍ ما؟».

ـ «نعم ولا. لقد عرض عليّ أن أوافيه الى الفندق، وما عدت أذكر أين. لم أكترث كثيراً...».

ـ «لم تغادري بمفردك».

ـ «صحيح. بينما كنتُ أهمّ بالمغادرة سألني زبون آخر لا أعرفه ولا بد أنّـه فرنسي، أين تقع ساحة سان لامبير. فقلت له إنها في طريقي. فرافقني بعض الطريق ثمّ قال لي فجأةً:

«ـ حسناً! لقد نسيت علبة تبغي في البار...»».

ـ «وعاد أدراجـه...».

ـ «أهو رجل ضخم الجثة؟».

ـ «بالضبـط!».

ـ «وعدتِ فوراً الى غرفتك؟».

ـ «كعادتي كلّ ليلة».

ـ «وعلمت بنبأ الجريمة في اليوم التالي عبر الصحف؟»

ـ «لقد زارني هذا الفتى... وهو الذي أخبرني...»

لمرتين أو ثلاث حاول شابو أن يقول شيئاً ولكنّ الكوميسير كان يثنيه عن ذلك بنظرةٍ رادعة. أما الأب فمكث واقفاً حيث كان.

ـ «أليست لديك أدنى فكرة حول حادثة القتل هذه؟».

لم تجب على الفور.

ـ «هيـا تكلمي! لقد اعترف شابو للتوّ أنّه كان مختبئاً في تلك الليلة، برفقةِ صديقه دلفوس، على درج القبو في الغيه مولان».

فضحكت باستهزاء.

ـ «إنـه يدّعي أنّ هدفهما كان سرقة الصندوق. وعندما دخلا الصالة، بعد الإقفال بنحو ربع ساعة، عثرا على جثة غرافوبولوس...».

- «بلا مزاح!».

- «برأيك مَن يستطيع أن يقترف مثل هذه الجريمة؟ ولكن مهلاً! أمامنا عدد ضئيل جداً من المشبوهين. هناك أولاً جينارو، صاحب المحلّ. ويزعم أنه غادر فوراً بعد أن غادرتِ أنت، وانه كان برفقة فيكتور. ويؤكد أن غرافويولوس كان قد غادر قبلهما».

هزّت كتفيها فيما راح شابو يرمقها بنظرات متوسّلة لكنّها لا تخلو من القسوة.

- «أتستبعدين أن يكون جينارو هو الجاني وكذلك فيكتور؟».

- «إنه افتراض أحمق! قالت بلا مبالاة.».

- «يبقى الزبون المجهول الذي تزعمين أنّك رافقته بعض الوقت. فمن الممكن أنه عاد أدراجه، بمفرده أو برفقتك...».

- «وكيف استطاع الدخول؟».

- «أنت تعملين في الملهى منذ وقتٍ طويل، مما يتيح لك أن تتدبري لنفسك نسخةً عن مفتاح المدخل!».

هزّت كتفيها مجدّداً.

- «ولكنّ علبة السجائر المذهّبة كانت مع دلفوس! أجابت. وهو الذي كان مُختبئاً هناك!».

- «غير صحيح! علبة السجائر كانت في غرفتكِ ظهرَ اليوم التالي! صرخ شابو. لقد رأيتها! أقسم لكم!...».

فـردّدت:

- «إنـه دلفوس».

سادت لبرهة جلبة سجال كلامي حاد قاطعه وصول أحد رجال الشرطة الذي همس عبارات ما في أذن الكوميسير.

ـ «دعه يدخل!».

وما لبث أن دخل عليهم رجلٌ بورجوازي المظهر، خمسيني متكرِّش تتدلّى من حزامه سلسلة ساعةٍ ذهبية. وبدا حريصاً على مظهره الرصين لا بل المتعالي قليلاً.

ـ «لقد طُلِبَ إليّ أن أحضر... بادرهم بالقولِ وهو يتلفّت من حوله بشيءٍ من الذهول».

ـ «هذا أنت يا سيد لانييه! قال الكوميسير مُرحباً. تفضّل بالجلوس. أعذرني للإزعاج الذي سببته لك، ولكن أودّ أن أعرف إذا كنت لاحظت، خلال نهار أمس، أي نقصٍ في أموال الصندوق في محلك».

فجحظت عينا صاحب متجر الشوكولاته في شارع ليوبار، وردّد بتعجّب:

ـ «صندوق المحل؟...».

وكان شابو الأب يرمقه بنظراتٍ قلقة، وكأن إجابة الرجل ستدفعه الى اتخاذ قرار حاسم بشأن القضيّة.

ـ «أحسب أن فقدان ألفي فرنك مثلاً أمرٌ تسهل ملاحظته؟».

ـ «ألفي فرنك؟... صدقاً، أنا لا أفهم...».

ـ «ليس مهمّاً أن تفهم! ولكن أجب عن سؤالي! هل لاحظت نقصاً في الصندوق؟...».

ـ «لا، على الإطلاق!».

ـ «يوم أمس زارك ابن أختك في المحلّ أليس كذلك؟».

ـ «مهلاً... بلى، أعتقد أنه جاء لزيارتي على جاري عادته بين حين وآخر... ليس بهدف الزيارة بل للحصولِ على كمية من الشوكولاته...».

ـ «ألم تلاحظ من قبل أن ابن أختك يختلسُ مالاً من الصندوق؟».

ـ «مهلاً يا سيّد!».

أبدى الرجل امتعاضه كأنّه يتّخذُ الحاضرين شهوداً على الإهانة التي ألحقت بعائلته.

ـ «إن صهري من الثراءِ وسعةِ اليدِ ما يُتيح له أن يوفّر لابنه كلّ ما يحتاج...».

ـ «أرجو المعذرة يا سيّد لانييه. إني شاكرٌ لك...».

ـ «هذا كلّ ما أردت...».

ـ «كل ما أردتُ أن أعرفه منك، أجل!».

ـ «ولكن ما الذي يجعلك تظنّ؟...».

ـ «لا أستطيع أن أقول لك الآن... يا جيرار!... اصحب السيّد لانييه من حيث أتى...».

وعـاود الكوميسير ذرعه أرض القاعة جيئةً وذهاباً فيما سألت أديل بشيء من الوقاحة.

ـ «أما زلتم في حاجة إليّ هنا؟».

فرمقها بنظراتٍ فيها من المعاني ما يكفي لإسكاتها. وران صمت مطبق لأكثر من عشر دقائق. كأنهم ينتظرون أحداً ما أو شيئاً ما. كان السيّد شابو لا يجرؤ على التدخين. ولا يجرؤ على النظر الى ابنه. كان مرتبكاً خجولاً من نفسه كزبون فقير ينتظر في ردهة عيادةِ طبيبٍ شهير.

أما جان فكان يراقب حركة الكوميسير وفي كلّ مرّةٍ يعبر هذا الأخير من أمامه كان يهمّ بالتحدّث اليه.

ثمّ سمع أخيراً وقع أقدام في الرواق. وطرق البابُ مراراً.

ـ «أدخـل!».

فدخـل رجلان: جينارو، وهو مربوع قصير القامة يرتدي بدلةً فاتحة اللون ذات سيور، وفيكتور الذي لم يسبق لشابو أن رآه من قبل إلّا في زيّ النادل، وقد ارتدى طقماً أسود اللون فبدا كرجل دين.

ـ «لقد تبلّغت استدعاءك منذ ساعة و...» قال الإيطالي بنبرةِ تودّد.

ـ «أعلم! أعلم! هلّا أخبـرتني إذا كنت رأيت علبـة سكـائـر غرافوبولوس في حوذة رينه دلفوس خلال الليلة المنصرمة».

انحنى جينارو معتذراً.

ـ «أنا لا أكترث كثيراً لأمر الزبائن، ولكنّ فيكتور قد يجيب عن هذا السؤال...».

ـ «حسناً! إذاً أجب أنت!».

كان جان شابو يُحدّق في عيني النادل، فيما علا صوت أنفاسه

المتسارعة. ولكن فيكتور قطّب قليلاً وهمس قائلاً:

ـ «لا أريد أن أسبّب أية أذية لهذين الشابين اللذين طالما عاملاني بلطف كبير. ولكن أحسب أنني مرغم على قول الحقيقة، أليس كذلك؟».

ـ «أجب بنعم أو لا'».

ـ «الحقيقة، أجل... كان يحمل العلبة .. حتّى كدتُ أنصحه بأن يحترس قليلاً...».

ـ «غريب أمر هذا الرجل! قال جان مغيظاً. هذا يفوق الحدّ فعلاً! ألا تخجل من نفسك يا فيكتور؟.... اسمع يا حضرة الكوميسير...».

ـ «اصمت! والآن أخبرني عن حالة هذين الشابين الماديّة».

فأجاب فيكتور مرتبكاً كأنّه يعترفُ بما لا يودّ قوله

ـ «كانا مدينين لي دائماً بمبلغ من المال... وليس فقط ثمن الشراب الذي يحتسيانه في الملهى!... إذ كانا أحياناً يقترضان بعض المبالغ الصغيرة...».

ـ «وما انطباعك عن غرافوبولوس؟».

ـ «ثري غريب وعابر سبيل. أمثاله هم أفضل الزبائن. لقد طلب الشمبانيا على الفور دون أن يسأل عن ثمنها. وأعطاني خمسين فرنكاً بقشيشاً...».

ـ «ولحت عدداً من الأوراق النقدية من فئة الألف فرنك في محفظة نقوده...».

ـ «أجل... كانت محشوة بالنقود... أوراق نقدية فرنسيّة وليس بلجيكية...».

ـ «أهذا كلّ ما لاحظته؟».

ـ «كان يشبك في ربطة عنقه الماسةً رائعة.

ـ «متى غادر الملهى؟».

ـ «بعد قليل من مغادرة أديل برفقة زبون آخر. رجل بدين لم يشرب سوى البيرة وأعطاني عشرين سنتيماً بقشيشاً. رجل فرنسي! فقد كان يدخّن سجائر فرنسية».

ـ «ومكثت بمفردك مع صاحب المحلّ؟».

ـ «ريثما نطفىء الأنوار ونقفل الأبواب»

ـ «وعدت مباشرةً الى منزلك؟».

ـ «كالعادة! لقد افترقت عن السيد جينارو عند ناصية شارع هوت سوفينير حيث يقطن».

ـ «وعند الصباح، حين عدت الى الملهى ألم تلحظ أي أثرٍ غير معتاد في الصالة؟».

ـ «على الإطلاق... لم يكن هناك أي أثرٍ للدماء... كانت النساء اللواتي يتولين التنظيف هناك وكنت أراقب عملهن...».

كان جينارو يُصغي بأذنٍ نصف صمّاء، كأنّ الأمر برمّته لا يعنيه في شيء. فسأله الكوميسير.

ـ «أصحيح أنّك في العادة تترك غلّة الأمسية في الصندوق؟».

ـ «من أطلعك على هذا الأمر؟».

ـ «هذا لا يعنيك! أجب عن سؤالي».

ـ «لا، على الإطلاق! أحملُ المال معي باستثناء القطع المعدنية الصغيرة».

ـ «يعنـي؟».

ـ «أترك ما يعادل خمسين فرنكاً من القطع المعدنية الصغيرة».

ـ «لكنه كاذب! صرخ شابو. لقد رأيته أكثر من عشر مرّات لا بل عشرين مرّة يغادر المحلّ دون أن يأخذ المال معه

فيقول جينارو:

ـ «ماذا؟ أهو الذي يزعم...؟».

وبدا بوضوح أن عجَبه ليس تظاهراً أو تصنّعاً. والتفت نحو المرأة.

ـ «اسأل أديـل».

ـ «إنه يقول الحقيقة!».

ـ «ما لا افهمه مثلاً هو ادعاء هذين الشابين أنهما عثرا على الجثـة داخل الملهى. لقد غادر غرافوبولوس قبل أن أغادر برفقة فيكتور. وما من وسيلة تمكنه من الدخول بعد الإقفال، لقد تمّت الجـريمـة خارج الملهى، لا أعرف أين... وأرجو المعذرة للهجتي الجازمة. هذان الشابان من زبائني أيضاً... لا بل أكنّ لهما قدراً من المودّة والبرهان على ذلك تسامحي بشأن الديون التي تراكمت عليهما للملهى. ولكنّ الحقّ هو الحقّ والقضيّة من الخطورة بحيث...».

ـ «شكراً لك!».

تردّد بعض الوقت. ثمّ سأل جينارو.

ـ «أبإمكاني أن أنصرف؟».

ـ «أجل، أنت ونادلك! سأستدعيكما عند الحاجة».

ـ «أحسبُ أنّ لا شيء يحول دون فتح الملهى؟».

ـ «لا، أبـدأ!».

وسألت أديل

ـ «وأنـا؟».

ـ «عودي الى منزلك!».

ـ «أهذا يعني أنك تطلق سراحي؟».

لم يجب الكـوميسير. كان مستغرقاً في التفكير ويداعب محرق غليونه. وعندما غادر الثلاثة معاً، بدت القاعة مقفرة.

لم يبق فيها إلاّ الكوميسير وجان شابو ووالده. ومكثوا جميعهم صامتين.

كان السيّد شابو أوّل من بادر الى الكلام، تردّد طويلاً. وفي آخر الأمر، تنحنح وشرع يقول:

ـ «أرجو المعذرة... ولكن اتعتقد حقاً؟...».

ـ «ماذا؟» قال الآخر، شارد الذهن.

ـ «لا أدري... يبدو لي...».

وأشار بيده محاولاً استكمال فكرته المشوّشة. إشارة غامضة قد تعني:

«... يبدو لي أنّ شيئاً ما لا يزال غير واضح في هذه القضيّة، ان شيئاً ما لا يزال ملتبساً وغير دقيق...».

كان جان قد نهض من مكانه واستعاد بعضاً من حيويته. وتجرأ على النظر الى والده.

ـ «جميعهم يكذبون! قال بصوتٍ واضحٍ ومسموع. أقسم انهم يكذبون! هلّا صدّقتني أيّها الكوميسير؟».

لم يحظ بجواب.

ـ «أتصدّقني يا أبي؟».

وشرع السيّد شابو يهزّ برأسه. ثمّ غمغم قائلاً:

ـ «لا أدري...».

ثمّ مُنصتاً الى صوت التعقّل اضاف قائلاً:

ـ «ربّما ينبغي أن تعثروا على الفرنسي الذي يتحدّثون عنه».

ولا بدّ أن الكوميسير كان لا يزال حائراً في أمره، ذلك أنه واصل تمشيه في أرجاء القاعة بخطواتٍ متسارعة وحانقة.

ـ «على كلّ حال، لقد توارى دلفوس عن الأنظار!» تمتم قائلاً، كأنّه يحدّث نفسه غير مكترث بهما.

تمشّى قليلاً وأردف قائلاً بعد وقت:

ـ «وهناك شاهدان يؤكدان أنه كان يحمل علبة السجائر المذهّبة!».

واصل حركته متابعاً خيط افكاره:

ـ «وكنتما أنتما الإثنان في القبو!... وهذه الليلة بالذات حاولت أن ترمي بأوراق نقدية في المرحاض.. و...».

ثمّ توقف ورمقهما أحدهما تلو الآخر.

ـ «حتى صاحب متجر الشوكولاته يُنكر أن يكون تعرّض لأي

اختلاس من أموال صندوقه!».

وغادر القاعة تاركاً الأب وابنه وجهاً لوجه. إلاّ أنهما لم يفيدا من خلوتهما. وعندما عاد كان الأب والابن يمكثان حيث كانا من قبل، تفصل بينهما مسافة خمسة أمتار، وقد لزم كلٌّ منهما صمتاً مطبقاً.

ـ «الأمر سيّان عندي! لقد اتصلت للتوّ بقاضي التحقيق! ومن الآن فصاعداً سيتولى التحقيق بنفسه! انه يرفض أي إجراء لإطلاق سراح المتّهم بصورة مؤقتة. وإذا كانت لديكم مطالب ما فما عليكما إلاّ التماسها لدى القاضي دو كونينك...».

ـ «فرنسوا؟».

ـ «أجل أعتقد أن هذا هو اسمه».

فقال الآب، بصوت خفيض وخجول:

ـ «لقد كنّا معاً في المدرسة».

ـ «حسناً إذاً، إذهب وقابله إذا كنت تحسب أنّه قد يفعل شيئاً من أجلك. ولكني، شخصياً، غير مقتنع بأنه سيفعل، لأنني أعرفه جيّداً! وفي الأثناء أعطاني الأوامر الصريحة بأن أودع ابنك سجن سان ليونار...».

لقد كان وقع هذه الكلمات مُغماً. فحتى تلك اللحظة كانت الأمور لا تزال غير قاطعة أو نهائية.

سجن سان ليونار! ذلك المبنى الأسود المقيت الذي يُضفي الكثير من البشاعة على أجواء حيّ كامل، قبالة جسر ماغان، بأبراجه القروسطية وكوى زنزاناته وقضبانها الحديدية...

مكث جان صامتاً وقد امتقع لونه.

ـ «جيرار!... نادى الكوميسير وهو يفتح أحد الأبواب. اصطحب شرطيين وسيّارة...».

وكانت هذه العبارة كافية لإفهامه ما ينبغي أن يفعله، ثمّ مكث الجميع في الانتظار.

ـ «لا خسارة من القيام بزيارة للسيّد دو كونينك! قال الكوميسير متنهـداً لمجرّد أن يقول شيئاً يكسر به سلطان الصمت. ما دمت تعرفه منذ أيام الدراسة...».

إلّا أن سحنته كانت تفضح ما يدور فعلاً في خَلَده: فقد كان يعقد المقارنة البسيطة بين القاضي، سليل أسرةٍ من القضاة تنتمي الى أعيـان المدينة، والمحاسب المتواضع الذي يعترف ابنه بأنه كان مصمّماً على السطو على صندوق الملهى الليلي.

ـ «إننا جاهزون أيها الرئيس!... قال المفتش فور دخوله. أينبغي...».

وكان شيء ما يلتمع بين يديه. فهز الكوميسير كتفيه بالإيجاب.

كان تثبيت القيد في المعصمين مجرد حركة روتينية لم تستغرق أكثر من ثانية واحدة حتّى أن الأب لم يتنبّه الى ما جرى إلّا بعد أن وضع القيد في يدي ابنه. فقد أمسك جيرار بمعصمي جان. وتكّة معدنية واحدة.

ـ «من هنـا!».

الأصفاد! وشرطيان ببزتهما النظامية كانا ينتظران في الخارج قرب سيّارة!».

تقدم جان بضع خطوات. حتّى بدا أنّه مصمّم على الرحيل دون أن يقول شيئاً. ومع ذلك، حين وصل الى الباب التفت الى الوراء. وبالكاد سمع صوته الواهن يقول.

- «اقسم لك، يا أبي...!».

- «ولكن قُلْ، بشأن الغلايين، لقد فكّرت ملياً صباح اليوم، ماذا لو نطلب ثلاث دزينات...».

كان ذلك المفتش المولع بالغلايين الذي دخلَ دون أن ينتبه فعلاً الى ما يجري، ورأى فجأةً ظهر الفتى مبتعداً وطرف معصمه مكبلاً بالأصفاد، فقطع كلامه معلّقاً: «إذاً، لقد قضي الأمر؟».

وإشار بما معناه: «انتهت القضيّة؟».

فأشار الكوميسير الى السيّد شابو الذي تهالك جالساً وقد غطّى وجهه بكفيه وجعل يبكي كامرأة.

وتابع الآخر كلامه بصوت خفيض:

- «... بامكاننا أن نصّرف الدزينة الثالثة في المفارز الأخرى... فالسعرُ مُغرٍ...!».

صوت باب سيارة يُغلق. ثمّ هدير المحرّك...

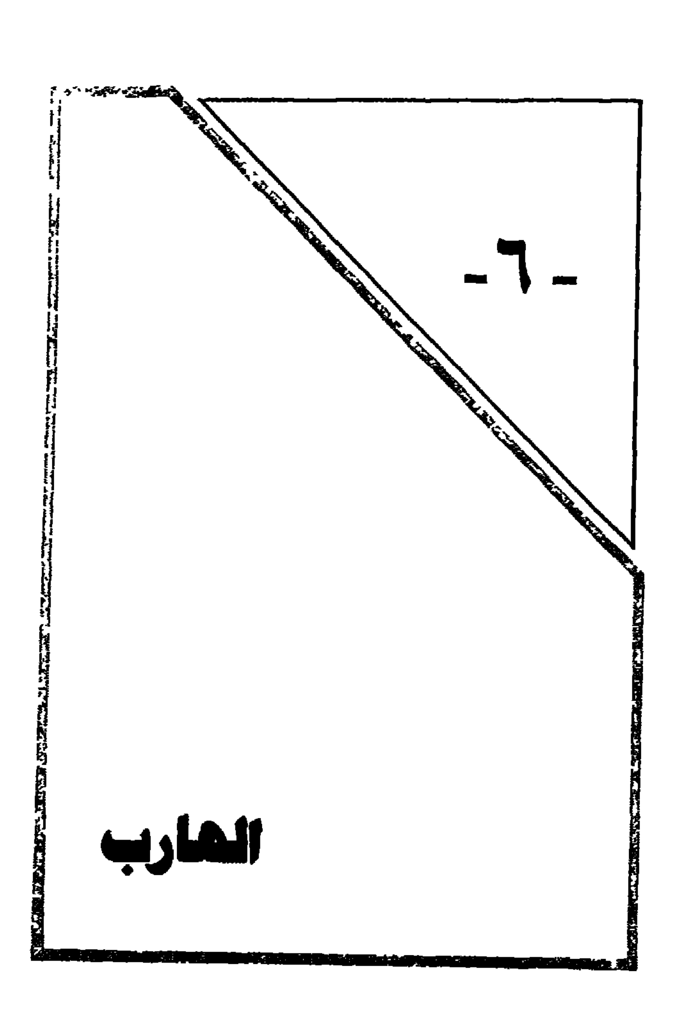
وكان الكوميسير يقول للسيد شابو بشيءٍ من الحرج:

- «أنت تعلم جيّداً... أنّ الأمور لم تبتّ بعد نهائياً..».

واضاف بنبرة من يفضحه كذبه:

- «... خصوصاً انك صديق السيّد دو كونينك!».

فما كان من الأب الذي همّ بمغادرة القاعة إلّا أن بادله ابتسامة امتنانٍ صفراء.


- ٦ -
الهارب



عنـد الواحـدة ظهـراً، صدرت الصحف المحليّـة وقد صدّرت صفحاتها الأولى بعناوين مثيرة. كان عنوان الـ «غازيت دو لييج»، الصحيفة الرصينة، على النحو التالي:

قضيّة حقيبة القنّب

إنّ مرتكبي الجريمة هما شابان داعران

وكتبت صحيفة «فالوني سوسياليست» من جهتها:

جريمة شابين بورجوازيين

كما أعلنت الصحف نبأ اعتقال جان شابو، وتواري دلفوس عن الأنظار، كما نشرت صورة لمنزل شارع لا لوا.

كذلك أوردت المعلومات التالية:

«... على اثر اللقاء المؤثر الذي جمعه بابنه في مركز الأمن العام، لازم السيّد شابو منزله مختاراً العزلة التامة ورافضاً الإدلاء بأي تصريح. امّا السيّدة شابو التي هالتها الصدمة فهي طريحة الفراش . . .».

* * *

«لقد تمكنّا من الاتصال بالسيّد دلفوس فور عودته من «هوي» حيث يمتلك عدداً من المصـاسـع. إنـه رجل حيوي، على مشارف الخمسين، لا يخبو بريق الذكاء من عينيه الفاتحتين لحظة واحدة. لقد تلقّى الصدمة بدم بارد. إنه واثق من براءة ابنه وصرّح لنا بأنه سيهتم بهذه القضيّة شخصياً...».

* * *

. لقد أفدنا من سجن ليونار أنّ جان شابو يُحافظ على هدوئه. وهـو ينتـظر زيـارة محـاميـه قبـل أن يمثل أمام قاضي التحقيق دو كونينك الذي كلّف بهذه القضيّة. .».

* * *

كان شارع لا لوا هادئاً على جاري عادته كان التلاميذ يدخلون الى ملعب المدرسة حيث يلهون في انتظار جرس الدوام.

بين بلاطات الرصيف نبتت أغمار من العشب، وثمة امرأة، عند الرقم ٤٨، تغسل عتبة دارها بفرشاة من ألياف الشوك.

أما الجلبة الوحيدة فكانت تلك الطرقات المتقطعة التي تتناهى من دكان صانع الأواني النحاسية.

إلّا أن الأبواب كانت غالباً ما تفتح بحركاتٍ مباغتة فتطل منها رؤوس تلقي بنظرة عاجلة في اتجاه الرقم ٥٢. وكانت تلك الرؤوس حين تتلاقى تتبادل بعض العبارات العاجلة من عتبة الى عتبة.

ـ «أيعقـل أن يكون هو مرتكب الجريمة!... إنه لا يزال صبياً برفقة أبنائي...»

ـ «لقد قلت لزوجي حين لمحته مرتين يعود إلى البيت ثملاً... في سنّه!...».

كلّ ربع ساعة تقريباً كان يُقرع الجرس في فناءِ دار آل شابو. وكانت الطالبة البولندية هي التي تفتح الباب.

ـ «السيِّد والسيِّدة شابو ليسا هنا...» كانت تجيب بلهجةٍ تشوبها لكنة أجنبيّة واضحة.

ـ «غازيت دو لييج»... هلّا أخبرتهما أنّ...».

ويعمد الصحافي الى مطّ عنقه لإلقاء نظرة خاطفة على الداخل. فيلمح في المطبخ خيالاً غير واضح لرجلٍ جالس.

ـ «لا تتعب نفسك، إنهما ليسا هنا...».

ـ «ولكن...».

كانت الطالبة البولندية تغلق الباب. وينصرف الصحافي الى طرح أسئلته على الجيران.

احدى الصحف نشرت عنواناً تفرّدت به عن الصحف الأخرى.

اين الرجل ذو المنكبين العريضين؟

وضمّنت التفاصيل ما يلي:

«الجميع حتّى الآن مقتنع بتجريم دلفوس وشابو ودون أن نكون في صفّ الدفاع عنهما وبالتزامنا الموضوعية في استقراء الوقائع، يحقّ لنا، مع ذلك، أن نعبّر عن دهشتنا لاختفاء شاهد مهم: الزبون ذو المنكبين العريضين الذي كان حاضراً في الغيه مولان ليلة ارتكاب الجريمة.

«وتفيد اقوال نادل الملهى أنّه فرنسي شوهد للمرّة الأولى والأخيرة في تلك الليلة. فهل غادر المدينة؟ أم انه يؤثر عدم التعرّض لاستجواب الشرطة؟

«قد لا يكون طرف الخيط هذا على قدر قليل من الاهمية، وفي حال إثبات براءة الشابين، فربما كان هذا الخيط هو الذي يوضح ملابسات الجريمة.

«وقد بلغتنا معلومات أن الكوميسير دلفيني الذي يتابع التحقيق بتعاون وثيق مع قاضي التحقيق قد أعطى أوامره للمفرزة المختصة ولرجال شرطة السير بالعمل على العثور على زبون الغيه مولان المتواري عن الأنظار...»

لقد صدرت طبعة الصحيفة قبل الساعة الثانية ظهراً بقليل.. وعند الثالثة دخل رجل بدين الى مركز الشرطة وطلب مقابلة السيّد دلفيني وقال له

- «أنا مدير فندق «أوتيل مودرن»، القائم في شارع بون دافروي لقد قرأت الصحف لتوّي وأعتقد أن بامكاني تزويدكم ببعض المعلومات بشأن الرجل الذي تبحثون عنه».

- «الفرنسي؟».

- «أجل. وبشأن الضحيّة أيضاً. في العادة لا ابالي كثيراً بالهراء الذي تنشره الصحف ولذلك لم أتنبّه الى ما سأقوله إلّا فيما بعد. لنر قليلاً... في أي يوم نحن؟... الجمعة... إذاً كان ذلك يوم الأربعاء... لقد وقعت الجريمة يوم الأربعاء، اليس كذلك؟... لم أكن هنا... لقد ذهبت في ذلك اليوم الى بروكسل لقضاء بعض المشاغل... وجاء زبون الى الفندق، كانت له لكنة أجنبيّة واضحة، ولا حقائب معه سوى حقيبة سفر صغيرة من جلد الخنزير... طلب غرفة فسيحة تطلّ على الشارع وصعد اليها مباشرة... وبعد دقائق معدودة جاء زبون آخر ونزل في غرفة مجاورة...».

- «في العادة تملأ استمارة الإقامة عند وصول الزبون... ولا

أعرف بالضبط لماذا لم يتمّ ذلك في حينها... عدتُ الى الفندق نحو منتصف الليل. وألقيت نظرة على لوحة المفاتيح...».

ـ «ألديك الاستمارات؟ سألتُ عاملة الصندوق».

ـ «كلها باستثناء استمارتي الزبونين اللذين غادرا مباشرةً بعد وصولهما».

صباح يوم الخميس، كان أحدهما قد عاد فقط. ولم أنشغل كثيراً بشأن الآخر ظناً مني أنه لا بدّ ان يكون مستغرقاً في البحث عن رفقةٍ مسليّة.

لم يتسنّ لي خلال النهـار أن ألتقي الزبون الجديد، وصباح اليـوم قيل لي انه سدّد حسابه وغادر الفندق. وعندما طلبت اليه عاملة الصندوق أن يملأ الاستمارة، هزّ كتفيه وغمغم قائلاً أن لا جدوى من ذلك لأنه سيغادر على الفور.

ـ «عفواً! قال الكوميسير مقاطعاً. أهو الرجل الذي تنطبق عليه أوصاف الرجل ذي المنكبين العريضين الذي تحدّثت عنه الصحيفة؟».

ـ «اجل... غادر حاملاً حقيبته الوحيدة نحو التاسعة صباحاً...».

ـ «والآخـر؟».

ـ «بما أنه لم يعد، دفعني فضولي الى الدخول الى غرفته بواسطة المفتاح العمومي الذي نستبقيه معنا تحسباً لأي حالة طارئة. وهناك قرات على حقيبة الجلد اسماً: إفراييم غرافوبولوس. وهكذا علمت أن الرجل الذي عثر عليه في حقيبة القنب هو نزيل فندقي...».

ـ «هـذا يعني أنهما وصلا بعد ظهر يوم الأربعاء، قبل بضع ساعات من وقوع الجريمة، وأنهما وصلا الى الفندق واحدهما تلو الآخر. كما لو أنّهما وصلا الى المدينة على متن القطار نفسه!».

ـ «أجل! على متن القطار السريع القادم من باريس».

ـ «وفي المساء غادرا الفندق واحدهما تلو الآخر».

ـ «دون إملاء الاستمارة!».

ـ «ثمّ عاد الفرنسي بمفرده، وغادر الفندق هذا الصباح».

ـ «بالضبط! أرجو منك أن تعمل على عدم ذكر اسم الفندق في ما تنشره الصحف، فمن شأن ذلك أن يؤثر على حركة الزبائن».

ولكن في تلك الأثناء كان أحد خدم الفندق يروي القصة نفسها لأحـد الصحـافيين. وعند الخامسة مساءً، كان بوسع القراء أن يجدوا في الطبعة الأخيرة من الصحف المحليّة كلّها هذا النبأ

التحقيق يتخذ منحىً مختلفاً.

هل الرجل ذو المنكبين العريضين هو القاتل؟

كان نهـاراً مشرقـاً، تتـدفّق الحيـاةُ حركـةً في شوارع المدينة المشمسـة. وبين حشد المارّة كان الشرطيون الموزعون في الأنحاء يحاولون التعرّف الى الرجل الفرنسي المطلوب. وفي المحطّة كان أحد مفتشي الشرطة يقف خلف كل موظف من موظفي شباك التذاكر، يُدقّق في سُحَنِ المسافرين ومظهرهم.

شارع بودور، شاحنة تفرّغ قبالة الغيه مولان صناديق شمبانيا يتـولّى العـاملون انزالها الى القبو على التوالي، عبر الصالة التي تسـودهـا ظلالٌ فاتـرة. كان جينارو يراقب عملية التفريغ بردنيه

المستعارين وسيجارته المثبتة بين شفتيه. وكان يهزّ راسه كلّما توقف عابرٌ هامساً في أذن رفيقه بشيء من التهيّب:

ـ «هذا هو المكان!...».

كان المارة يتوقفون ويدفعهم فضولهم الى استراق نظرات عاجلة الى الداخل حيث تسود عتمة خفيفة فلا يُرى من محتويات الصالة إلّا المقاعد المنجدة بالمخمل الأحمر وطاولات الرخام.

عند التاسعة أضيئت الأنوار وبدأ العازفون يدوزنون آلاتهم، وعند التاسعة والربع كان ستة صحافيين يجلسون الى البار ويتحدّثون بشيء من الاهتمام والحماس.

عند التاسعة والنصف كان الزبائن يتحلقون حول نصف طاولات الصالة، وهو الأمر الذي لا يحصل عادةً إلّا مرّةً واحدة في السنة. ليس فقط الشبّان الذين اعتادوا على ارتياد الملاهي الليلية والمراقص، بل جلهم من الرجال المحترمين الذين يدخلون لأوّل مرّة في حياتهم الى أماكن سيئة السمعة والصيت. أتى الجميع لمعاينة المكان. لم ينهض أحد منهم الى حلبة الرقص، كانوا يكتفون بالنظر مليّاً الى صاحب المحلّ، ثم فيكتور ثمّ الراقص المحترف. وكان بعضهم يذهب مراراً الى حجرة المغاسل لمعاينة درج القبو الذي أصبح شهيراً.

ـ «بسرعة! بسرعة!» كان جينارو يحثّ الخادمين اللذين انهمكا في تلبية الطلبات الكثيرة.

وكان يُشيرُ الى الفرقة الموسيقية بتوجيهات صامتة. وسأل امرأةً بصوت خفيض:

ـ «ألم تلمحي أديل؟ لقد حان لها أن تصل!».

ذلك أن أديل هي التي كانت تستقطب الأنظار ويودّ الفضوليون أن ينظروا اليها عن كثب

ـ «انتبه! همس أحد الصحافيين في أذن زميل له. إنهما هنا...».

وأشار الى رجلين يجلسان الى طاولة قربَ الباب المبطّن بالمخمل. كان الكوميسير دلفيني يحتسي جرعات من البيرة فتعلق بقاية الرغوة على شاربيه الأصبهين. وبجانبه المفتش جيرار الذي يستغرقُ في تأمّل الزبائن واحداً تلو الآخر

عند العاشرة كانت أجواء الملهى قد أصبحت مميّزة بالفعل. وكأنّه ليس ملهى الغيه مولان بروادة القلائل وبعض عابري السبيل الذين يبحثون عن رفقة لتلك الليلة.

وكان وجود رجال الصحافة الملحوظ يذكّر بالفترات التي تشهد فيها المدينة احدى المحاكمات الكبرى أو إحدى الأمسيات الراقصة

الذين اعتادوا على تغطية مثل تلك الأحداث كانوا جميعهم هناك. ليس فقط من مراسلي الصحف بل وأيضاً المحرّرون. حتّى أنّ احدى الصحف انتدبت مدير تحريرها للحضور. بالإضافة الى كلٍّ من اعتادوا ارتياد المقاهي الكبيرة، من يحبّون الإفادة من لحظات العيش، كما يُقال في الأرياف عادة، والنساء الجميلات.

في الشارع نحو عشرين سيّارة رُكنت بمحاذاة الرصيف. وكان الوافدون الجُدد يلقون التحيّة من طاولةٍ إلى أخرى، فيما ينهض من سبقهم للمبادرة الى مصافحة الأيدي.

ـ «هسّ! لا تتكلم بصوتٍ عالٍ! ذو الشعر الأصهب هناك انه الكوميسير دلفيني. فإذا تكبّد مشقة المجيء الى هذا المكان فلأنّ...».

ـ «من هي أديل؟ أهي الشقراء البدينة؟».

ـ «لم تصل بعد!».

ثمّ وصلت أديل، وكان دخولها الصالة لافتاً، بمعطفها الساتان الأسود الفضفاض المبطّن بالحرير الأبيض. كانت تتقدم بضع خطوات ثمّ تقف وتنظر من حولها بعدم اكتراث ثمّ اتجهت نحو الفرقة الموسيقية ومدّت يدها لتصافح قائد الأوركسترا.

التماع فلاش. لقد التقط أحد المصوّرين صورةً لصحيفته إلاّ أن المرأة الشابة هزّت كتفيها كأنها لا تبالي لاقبالِ هذا الحشدِ عليها.

ـ «خمس كؤوس من البورتو، خمس كؤوس!».

وكان فيكتور وجوزيف في حركةٍ دائمة وقد أنهكهما التجوال بين الطاولات لتلبية الطلبات الكثيرة.

كأنها ليلة احتفال. لكنّه احتفال يقصده المرء لمراقبة الآخرين فيما انفرد الراقصون المحترفون بحلبةِ الرقص في أدائهم رقصاتهم المعتادة.

ـ «لا أرى ما يفوق العادة في هذا المكان! قالت امرأة لزوجها الذي اصطحبها الى الكباريه لأوّل مرّة في حياته. فأنا لاأجد شيئاً ممّا يثير العجب».

دنا جينارو من الشرطيين.

- «أرجو منكما المعذرة. ولكن أودّ أن أستأنسَ برأيكما. أتعتقد ان أنه ينبغي أن نتابع برنامج العرض كالمعتاد في كل ليلة؟.. أقصد أن على أديل أن ترقص الآن...».

هزّ الكوميسير كتفيه مشيحاً بوجهه.

- «إنما أسأل لكي أتلافى ما من شأنه أن يزعجكما...».

كانت المرأة الشابة تجلسُ الى البار وقد تحلق حولها عدد من الصحافيين يتحدثون اليها.

- «الخلاصة أن دلفوس سطا على محتويات حقيبتك. هل اتخذته عشيقاً منذ وقت طويل؟».

- «انه لم يكن حتى عشيقي!».

وبدا عليها بعض الاحراج، إذ كان عليها أن تبذل جهداً استثنائياً لمواجهة كلّ العيون التي ترمقها بنظرات فضول.

- «لقد شربتِ الشامبانيا في صحبة غرافوبولوس. برأيك، الى أي نوعٍ من الرجال كان ينتمي؟».

- «كان رجلاً لطيفاً! ولكن دعوني وشأني.. » وذهبت الى المدخل لتخلع معطفها، وبعد ذلك بقليل دنت من جينارو.

- «هل أرقص؟».

كان حائراً في أمره. ينظرُ الى كلّ ذلك الحشد بشيء من التوجّس والقلق، كأنه يخشى أن يفلت زمام الأمور من يديه.

- «تراهم ماذا ينتظرون».

أشعلت سيجارة وأسندت كتفها الى حافة البار زائغة العينين

دون أن تجيب عن الأسئلة التي واصل الصحافيون طرحها عليها.

ثمّ سمع صوت امرأة بدينة من الزبائن تقول:

ـ «إنه لمضحك حقاً أن تدفع عشرة فرنكات ثمناً لكأس الصودا وليس هناك حتّى ما تتفرّج عليه!».

ومع ذلك كان هناك ما يستحقّ المشاهدة، ولكن فقط لمن يعرف جيّداً أبطال المأساة. رفع البوابُ في ثيابه الحمراء الستار المخملي الذي يحجب الباب فدخل رجلٌ خمسيني ذو شاربين رماديين، ولم تلبث معالم الدهشة أن ارتسمت على وجهه لرؤيته الحشدَ داخل الصالة.

كاد يتراجع لوهلته إلّا أن عينيه صادفتا أحد الصحافيين الذي عرفه على الفور ولكز جاره بمرفقه. وعندئذ صمّم على متابعة طريقه بشيء من اللامبالاة، وتقدّم الى الداخل نافضاً رماد سيجارته.

كان أنيق المظهر، وتنمّ أناقته عن خبرةٍ واسعة في اقتناص لحظات العيش الحقّة وتجربة لا يستهان بها بحياةِ الليل.

تقدّم مباشرةً نحو البار، وخاطب جينارو.

ـ «هل أنت صاحب المحلّ».

ـ «أجل يا سيّدي».

ـ «أنا السيّد دلقوس! يبدو أنّ ابني مدين لك ببعض المال؟».

ـ «يا فيكتور!».

فهرع فيكتور اليه.

ـ «إنه والد رينه، جاء يسأل بكم هو مدين لك».

ـ «مهلاً ريثما أتحقق من الدفتر... السيد رينه وحده؟ أم السيّد رينه وصديقه؟.. هه!. . مئة وخمسون فرنكاً وخمسة وسبعون سنتيماً. . بالإضافة الى عشرة فرنكات ومئة وعشرين أخرى من حساب ليلة أمس...».

أعطاه السيّد دلفوس ورقة من فئة الألف فرنك وقال بنبرة جفاء:

ـ «احتفظ بالباقي!».

ـ «شكراً لك يا سيّدي! شكراً جزيلاً! الا ترغب في احتساء شرابٍ ما؟».

إلّا أن السيّد دلفوس كان قد عاود أدراجه في اتجاه الباب دون أن ينظر الى أيٍّ من الحضور. ومرّ بمحاذاة طاولة الكوميسير الذي لا يعرفه. وعندما همّ بالخروج من الباب لامست كتفه كتفَ وافدٍ جديد فلم يكترث له وصعد الى سيّارته.

ومع ذلك فإنّ الحدث المهمّ المرتقب طيلة السهرة كان قد أوشك موعده. إذ دخل رجل طويل القامة عريض المنكبين غليظ الوجه وقد التمعت عيناه بنظراتٍ هادئة.

ولم تلبث أديل، وكانت أوّل من رآه، ربّما لأنها مكثت تراقب باب المدخل، أن اتسعت حدقتاها لفرط دهشتها.

كان الوافد الجديد يتقدّم نحوها ويمدّ لها كفاً مكتنزة لحيمة.

ـ «كيفَ حالك، منذ تلك الليلة؟».

حاولت أن تبتسم له.

ـ «شكراً لك! وأنت؟».

كان الصحافيون يراقبون المشهد ويتبادلون الهمس.

ـ «أراهنك بما تشاء أنه هو!».

ـ «الرجل المقصود لن يأتي الى هنا هذه الليلة!».

وكما لو أنه يتصّرف بتحدٍّ ما، سحب الرجل من جيبه كيس تبغ رمادياً وراح يحشو منه غليونه.

ـ «كوب بيرة شقراء!» قال مخاطباً فيكتور الذي مرّ بمحاذاته حاملاً صينيّة ملأى بالكؤوس.

فأجاب فيكتور باشارة من رأسه وتابع طريقه مارّاً بمحاذاة طاولة الشرطيين فهمس بسرعة:

ـ «إنّــه هــو!».

كيف شاع الخبر؟ أمرٌ غامض. ولكنْ بعد دقيقة واحدة كانت الأنظار كلها شاخصة في الرجل ذي المنكبين العريضين الذي جلسَ جانبيــاً على كرسيّ عالٍ أمــام البــار، وراح يشرب بيرته بجرعاتٍ صغيرة متأمّلاً الحضور عبر زجاج الكوب المغبّش.

لثلاث مرّات على التوالي كان على جينارو أن يشير الى العازفين بالانتقال الى لحنٍ جديد. وحتى الراقص المحترف نفسه، لم يستطع فيما يراقصُ شريكته إلا أن ينظر الى الرجلِ متأمّلاً في سحنته.

وكــان الكوميسير دلفيني والمفتش يتبادلان إشارات مقتضبة، فيما مكث الصحافيون يراقبون ما يدور بينهما من بُعد.

ـ «الآن؟».

ثمّ نهضا معاً وتقدّما نحو البار بخطوات رخوة.

استند الكوميسير ذو الشاربين الأصهبين الى حافة البار قبالة الرجل. ووقف جيرار خلفه تحسُّباً لأي مقاومة.

لم تتوقف الموسيقى. ومع ذلك كان الحاضرون يشعرون بوطأة صمتٍ ثقيل وغير عادي.

ـ «أرجو المعذرة! لقد نزلت في فندق «أوتيل مودرن» أليس كذلك؟».

فهبطت نظراتٌ ثقيلة على سحنة السائل.

ـ «وبَعْـد؟».

ـ «أعتقد انّك نسيت أن تملأ الاستمارة».

كانت أديل تقف على بعد ثلاث خطوات، لا تفارقُ عيناها سحنة الغريب. أما جينارو فكان يُطلقُ سدّادة احدى زجاجات الشمبانيا.

ـ «إذا كنت لا تمانع، أودّ أن ترافقنا الى المكتب حيث بامكانك أن تملأ الاستمارة... وحذار! إيّاك والمعاندة...».

كان الكوميسير دلفيني يتثبّت من استعداد شريكه ويتساءل عبثاً عمّا يُثير لديه هذا الشعور الغريب.

ـ «هلّا تبعتني؟».

ـ «مهـلاً...».

ودسّ يده في جيبـه. فظنّ المفتش جيرار أنـه يريـد أن يشهر مسدساً فارتكب هفوة اشهار مسدسه.

نهض عددٌ من الزبائن فجأة وأطلقت امرأةٌ صرخة هلع. ولكن

الرجل لم يخرج من جيبه إلاّ بعض القطع النقدية المعدنية وضعها فوق البار قائلاً:

ـ «سأتبعك!».

لم يغادروا الصالة كما أراد الكوميسير. ذلك أنّ مسدس المفتش قد أخاف الزبائن وإلاّ لتحلق هؤلاء على الجانبين. كان الكوميسير يسير في الطليعة يتبعه الرجل ثمّ جيرار الذي امتقع لونه بسبب هفوته التي لا تغتفر.

التمع فلاش أحد المصوّرين. وفي الخارج كانت سيّارة تنتظر.

ـ «هلاّ صعدت أوّلاً...».

كانت المسافة التي تفصل الملهى عن مركز الشرطة لا تستغرق أكثر من ثلاث دقائق في السيّارة. وكان مفتّشو الخدمة الليلية منهمكين بلعبة الورق واحتساء أكواب البيرة التي استقدموها من مقهى مجاور.

دخل الرجل كأنه يدخل الى داره، ونزع قبعته المستديرة وأشعل غليوناً ضخماً ينسجم حجمه مع مظهر وجهه المكتنز.

ـ «أتحمل أوراقاً ثبوتية؟».

كان دلفيني عصبي المزاج. فثمة ما لا يروق له في هذه القضيّة دون أن يعرف ما هو بالضبط.

ـ «لا أحمل أوراقاً على الإطلاق!».

ـ «أين وضعت حقيبتك بعد مغادرتك الفندق؟».

وحاول الكوميسير أن يرمق الرجل بنظرةٍ صارمة لكنّ نظرته لم

تلبث أن وهنت حين رأى المتّهم يداعبه مثل طفل.

ـ «لا أدري!»

ـ «كنيتك، واسمك ومهنتك وعنوانك...».

ـ «مكتبك هناك؟».

وأشار الى الباب الذي يفضي الى غرفة مكتب خالية ومعتمة.

ـ «وبعـد؟».

ـ «تعـال معـي!».

كان الرجل الغريب قد سبقه الى غرفة المكتب وأدار زر الإضاءة وأغلق الباب.

ـ «أنا الكوميسير ميغريه، من أفراد الشرطة القضائية في باريس! قال وهو يطلق نفثات متقطعة من غليونه المشتعل. هيّا أيّها الزميل! أحسب أننا أبلينا بلاءً حسناً هذه الليلة. ثمّ لديك غليون جميل!...».

- ٧ -

الرحلة الغريبة



ـ «على الأقل، لن يهرع الصحافيون الينا؟ أوصد الباب بالمفتاح، لو سمحت؟ الأفضل أن نتحدّث على انفراد».

كان الكوميسير دلفيني يرمق زميله بنظراتٍ تنمّ عن ذلك الإعجاب اللاإرادي الذي يبديه أهل الريف عادةً، وخصوصاً في بلجيكا، حيال كلّ ما يأتيهم من باريس. هذا بالإضافة إلى إحساسه العميق بالضيق للهفوة التي ارتكبها وأراد أن يعتذر.

ـ «لا ينبغي أن تعتذر على الإطلاق! قال ميغريه جازماً. لقد أردتُ أن تعتقلني بأي ثمن! وسأمضي في اللعبة الى أبعد من ذلك: بعد قليل ستودعني السجن وسأمكث فيه المدّة الضرورية. ويجب أن يقتنع المفتشون الذين يعملون هنا بجديّة هذا الاعتقال».

ثم تنبّه الى سحنة زميله! فقهقه ضاحكاً لما بدت عليه سحنة البلجيكي من استهجان. كان ينظر الى ميغريه بطرف عينه حائراً في أمر ما ينبغي أن يفعله حيال ذلك. وبدا واضحاً أنه يخشى أن يظهر بمظهر المغفّل. وحاول عبثاً أن يعرف يقيناً إذا كان زميله يسخر منه أم لا.

وبالعدوى أثار ضحك ميغريه لديه نوبةً من الضحك المماثل.

ـ «هيّا! هيّا! يا له من مزاح! أن أودعك السجن! .. ها ها..!».

ـ «أقسم لك أنني لا أمزح بل أصرّ على ذلك!».

ـ «ها.. ها..!».

قاوم الفكرة طويلاً. ولكن عندما أيقن من جدّية الكلام الذي يسمعه أحسّ بارتباكٍ شديد.

جلسا وجهاً لوجه تفصل بينهما طاولة محمّلة بأكوامٍ من الملفّات. ومن حينٍ لآخر كان ميغريه يسترقُ نظرة إعجاب الى غليون زميله

ـ «سأشرح لك. .، قال. أرجو المعذرة لأنني لم أطلعك على هذا الأمر من قبل، ولكنّ الأمر كان مستحيلاً كما سترى بعد قليل. لقد وقعت الجريمة يوم الأربعاء، أليس كذلك؟ حسناً! يوم الاثنين كنت في مكتبي، القائم في الكلية ديزورفيفر، عندما سلّمني أحدهم بطاقة زيارة باسم المدعو غرافوبولوس. وكالعادة، قبل أن أستقبله عمدت الى الاتصال بمكتب قيد الأجانب لاستعلم عنه. فلم أجد شيئاً يذكر! فقد كان غرافوبولوس قد وصل لتوّه إلى باريس...

«وعندما دخل الى مكتبي بدا لي مضطرباً. وشرح لي أنّه كثير الأسفار وأنّ لديه أسباباً تدعوه للخشية من تعرّض حياته للخطر، وختم حديثه بسؤال عن نفقاتِ حمايته ليلاً نهاراً بواسطة أحد مفتشي الشرطة.

«مثل هذا الأمر شائع. فأطلعته على التعرفة المتبعة. لكنّه أصرّ على تكليف مفتش ذي خبرةٍ ودراية بهذا الشأن، أما الأسئلة التي طرحتها عليه حول الأخطار التي تحدّق به والأعداء المحتملين فظلّت من دون أجوبة مقنعة.

- «أعطاني عنوانه في «الغران أوتيل» وعند المساء أوفدت اليه المفتّش المطلوب.

«في صباح اليوم التالي استكملت استقصاءاتي عن الرجل الأجنبي وأفادتني سفارة اليونان انه ابن أحد كبار مصرفيي أثينا وأنّه يعيش متنقلاً بين بلدان أوروبا حياة الأثرياء الكبار المتبطلة.

«أراهن أنّك أصبحت ترى فيه صورة المغامر».

- «بالضبط. هل أنت واثق...؟».

- «مهلاً! مساء يوم الثلاثاء أفادني المفتّش المكلّف بحماية غرافوبولوس أنّ هذا الأخير يبذل جهده طيلة الوقت محاولاً تضليل مرافقه الذي يقتفي أثره. ولهذا الغرض يستخدم الحِيَل الشائعة كالبيوت ذات المدخلين وتبديل سيّارات الأجرة التي يستقلها باستمرار. ويضيف المفتش أن غرافوبولوس قد حجز تذكرة سفر على متن إحدى الطائرات المتوجهة الى لندن صباح يوم الأربعاء.

«وبامكاني الآن أن أعترف: أن فكرة القيام برحلة قصيرة الى لندن، وخصوصاً على متن الطائرة، قد راقت لي. فعزمت على اقتفاء أثره على نفقتي الخاصة.

«في صبيحة يوم الأربعاء، غادر غرافوبولوس فندق «غران أوتيل»، ولكن بدل أن يتوجه الى مطار بورجيه، استقل سيّارة أجرة نقلته الى محطة «الشمال» حيث اشترى تذكرة قطار للسفر الى برلين...

«فاستقلّيت العربة عينها. ولا أدري إذا عرفني أثناء الرحلة، إلاّ أنه لم يتوجه إلي بكلمة واحدة.

«ثم نزل من القطار في ليبج فتبعته. ونزل في غرفة في «الأوتيل

مودرن» فاخترت أن أنزل في غرفة مجاورة لغرفته.

«تناولنا طعام الغداء في مطعم خلف «التياتر رويال»».

- «لا بيكاس! قاطعه السيد دلفيني. انه يقدّم أطباقاً شهيّة!».

- «خصوصاً طبق الكلى المطبوخة على الطريقة المحليّة، صحيح! ولاحظت أن غرافوبولوس يزور مدينة لييج للمرّة الأولى أو على الأقلّ هذا ما بدا لي. فقد أرشده موظف الاستعلامات في المحطة الى فندق «أوتيل مودرن». كما نصحه بوّاب المطعم بارتياد الغيه مولان».

- «هذا يعني أنه ذهب الى هناك بمحض المصادفة!» قال الكوميسير دلفيني ساهماً.

- «أعترف أنني لا أعرف شيئاً بهذا الشأن. ولكن ما رأيته أن راقصة تعمل في الملهى كانت تجلس الى طاولته، وهو أمر طبيعي. والحقيقة أنني ضجرت كثيراً هناك، ذلك أني لستُ ممّن تستهويهم مثل هذه العلب الليلية. في البداية حسبتُ إنه سيصحب المرأة الى غرفته. وعندما رأيتها تهمُّ بالمغادرة بمفردها رافقتها لبعض الطريق، مما أتاح لي أن أطرح عليها بضعة أسئلة. فأكّدت لي انها المرّة الأولى التي ترى فيها هذا الرجل الأجنبي وانّه ينتظرها لكنّها لن تذهب الى موعده، وأضافت انّه مضجر.

«وهذا كلّ شيء. عندئذٍ عدت أدراجي. كان صاحب المحلّ يُغادر برفقة النادل. وحسبت أن غرافوبولوس قد غادر بدوره فأوليت باب الملهى ظهري ورحتُ أبحثُ عنه في الشوارع المجاورة.

«ثمّ قصدتُ الفندق للتثبّتِ من أنّه لم يعد اليه. وعندما عدتُ الى الغيه مولان كانت أبوابه لا تزال مقفلة وأضواء الداخل مطفأة.

«باختصار باءت كلّ مساعي الفشل. إلاّ أنّ هذا لم يدفعني الى

أي تصوّر مأساوي للقضية. سألت أحد رجال الدرك إذا كان هناك ملاهٍ ليلية أخرى لا تزال تعمل في هذه الساعة. فأشار علي بأربعة أو خمسة منها، وقصدتها جميعها دون أن أعثر على اليوناني».

ـ «إنه أمر مذهل!» تمتم السيّد دلفيني.

ـ «رويدك! كان بامكاني أن أتقدّم إليك لمتابعة القضيّة بالتعاون مع شرطة لييج. ولكن بعد زيارتي للغيه مولان باتوا يعرفونني هناك لذلك فضّلت أن لا أقدم على ما قد يثيرُ الريبة لدى القاتل. والحقيقة أن عدد المشتبه بهم قليل جداً. وكان الخيط الأوّل الذي تتبعته ذينك الشابين اللذين تنبّهت، منذ البداية، إلى عصبيتهما وارتباكهما الظاهرين. وقادني هذا الخيط الى أديل وعلبة السجائر المذهبة التي تخصّ القتيل.

«أما أنتم فقد استعجلتم الأمور بعض الشيء. اعتقال جان شابو. وتواري دلفوس عن الأنظار. أي اخترتم المجابهة على نطاق واسع. وكلّ هذا لم يبلغني إلّا عبر الصحف.

«وعبر الصحف نفسها بلغني أنني مطلوب للعدالة بصفتي أحد المتهمين.

«هذا كل شيء! لقد أفدتُ من كلّ ذلك!».

ـ «وما وجه الإفادة؟».

ـ «أوّلاً، لديّ سؤال: هل أنت مقتنع بأنّ الشابين هما الفاعلان؟».

ـ «بصراحة...».

ـ «حسناً إذاً! أرى أنّك غير مقتنع بذلك. وبأية حال لا أحد يصدّق والقاتل يعرف جيّداً أن التحقيق سيتخذ بين لحظة وأخرى

منحىً مختلفاً. ولذلك يتحوّط للأمر وينبغي ألّا نعوّل كثيراً على أي هفوة من جهته».

ـ «في المقابل، هناك شكوك كبيرة تحوم حول الرجل ذي المنكبين العريضين، كما أعلنت الصحف.

«والحالُ أنّ هذا الرجل قد تمّ اعتقاله وفي ظروف استعراضية واضحة. والآن أصبح الناس يعرفون أن الفاعل الحقيقي قد اعتقل هذا المساء!

«ينبغي العمل على تثبيت هذا الاعتقاد. وصباح الغد سيعلم الجميع أني أودعت سجن سان ليونار وأن المحقق سيحظى باعترافات صريحة وشيكة».

ـ «هل ستدخل السجن فعلاً؟».

ـ «ولِمَ لا؟».

كان السيّد دلفيني لا يصدّق أن مثل هذا الأمر ممكن.

ـ «وبالطبع ستُعطى الحريّة المطلقة في التصّرف والحركة...».

ـ «على الإطلاق! بل أطلب أن تضعني تحت تدابير الحجز الأكثر تشدّداً!».

ـ «لديكم أساليب غريبة في باريس!».

ـ «ليست هذه أساليبنا! ولكن كما أخبرتك من قبل يجب أن يشعر الفاعل أو الفاعلون بأنّهم خارج دائرة الخطر. هذا إذا كان ثمة فاعل بالفعل...».

ولم يتمالك الكوميسير ذو الشاربين الأصهبين نفسه من الاعتراض مذهولاً هذه المرّة.

ـ «ماذا تقصد؟ أتكون في معرض التلميح بأن غرافوبولوس قد شجّ رأسه بأداة حادة ثمّ اقفل على نفسه داخل حقيبة قنب ثمّ ينقل نفسه بنفسه الى حديقة الحيوانات؟».

كانت عينا ميغريه الكبيرتان تلتمعان ببريق السذاجة.

ـ «مَنْ يدري؟».

وأضاف بعد انهماكه بحشو غليونه:

ـ «لقد حان الوقت لتقتادني الى السجن. ولكن قبل ذلك ينبغي أن نتفق حول بضع نقاط. هلاّ دوّنت عندك؟...».

كان يتصّرف ببساطة. حتّى أن صوته كان ينمّ عن قدر كبير من التواضع. ولكن هذا المظهر الخادع لا يُخفي حقيقةً مؤكدةً. وهي أنه اهتدى الى الوجهة الصحيحة لمتابعة التحقيق.

ـ «كلّي آذان صاغية...».

ـ «١ ـ الإثنين، غرافوبولوس يطلب حماية الشرطة الباريسية.

«٢ ـ الثلاثاء، يحاول تضليل المفتش المكلّف بالسهر على سلامته.

«٣ ـ الأربعاء، بعد حجزه تذكرة طائرة الى لندن، يستقل القطار المتوجّه الى برلين وينزل في مدينة لييج.

«٤ ـ يبدو أنه لا يعرف المدينة من قبل وتقوده المصادفة الى ملهى الغيه مولان حيث لا يقوم بأي عمل غير عادي.

«٥ ـ لحظة مغادرتي الملهى برفقة الراقصة كان أربعة أشخاص لا يزالون في الداخل: شابو ودلفوس اللذان تواريا عند درج القبو. وصاحب المحل وفيكتور اللذان مكثا في الصالة.

«٦ ـ عندما عدت الى الملهى. كان صاحب المحلّ وڤيكتور يهمّان بالمغادرة بعد أن أقفلا الأبواب. أما شابو ودلفوس فكانا لا يزالان في الداخل.

«٧ ـ يزعم الشابان أنهما خرجا من القبو بعد مضيّ ربع ساعة على الإقفال، وأنهما عثرا على غرافوبولوس جثة هامدة.

«٨ ـ إذا كـان زعمهما صحيحـاً، فهذا يعني أن الجـريمـة وقعت أثناء مرافقتي الراقصة لبعض الطـريق. وفي هذه الحـال لا بدّ أن يكون جينارو وڤيكتور هما الجانيين.

«٩ ـ وإذا كان زعمهمـا خاطئـاً، تكـون الجريمة وقعت عند خروجهما من مخبئهما ويكون شابو ودلفوس هما الجانيين.

«١٠ ـ قد تكون إفادة شابو كاذبة، وفي هذه الحال لا شيء يثبت أن الجريمة وقعت في الغيه مولان.

«١١ ـ قد يكـون القاتل هو الذي تولى نقل الجثة، ولكن من المحتمل أيضاً أن تكون الجثة قد نقلت بواسطة شخص آخر.

«١٢ ـ في اليوم التالي يُعثر على علبـة السجائـر المذهبـة في غرفة أديل ولكنها تدّعي أن دلفوس أعطاها إيّاها.

«١٣ ـ إن إفادات كلّ من جينارو والراقصة وڤيكتور تجمع على نقض مزاعم جان شابو».

ثمّ سكت ميغريه وراح ينفث دخان غليونه بتمهُّل فيما شخصت عينا زميله قلقاً.

ـ «هذا غريب حقاً!...» تمتم قائلاً.

ـ «ما هو الغريب؟».

ـ «مقدار تعقيد هذه القضيّة، أقصد حين نتفحّص تفاصيلها عن كثب».

نهض ميغريه.

ـ «لنأخذ قسطاً من الراحة والنوم! هل الأسرّة مريحة في سان ليونار؟».

ـ «هل أنت جادّ في رغبتك في الذهاب الى هناك...».

ـ «للمناسبة، أود أن أوضع في الزنزانة المجاورة لزنزانة الفتى. وغداً، سأطلب اليك، من دون شك، أن تجري مقابلةً بيننا».

ـ «وفي الأثناء ربّما عثرنا على صديقه دلفوس؟».

ـ «لا أرى أهميّة في ذلك».

ـ «أتعتقد أنهما أصبحا خارج دائرة التورط نهائياً؟ ذلك أن القاضي يرفض رفضاً قاطعاً أي طلب لإخلاء سبيلهما. وبأية حال، سيتوجب علي أن أطلعه على حقيقة أمرك...

ـ «حاول أن ترجىء هذه الخطوة ما استطعت، هلاّ اسديت لي هذه الخدمة؟ ولكن ما الذي يجري في الجوار؟».

ـ «انهم الصحافيون بالتأكيد! يجب أن أدلي أمامهم بتصريح ما. ماذا سأقول بشأن جنسيتك؟».

ـ «لا جنسية! مجرّد مجهول الهويّة! لم تعثروا على أي أوراق ثبوتية بشأن هويتي...».

كان الكوميسير دلفيني لا يزال حائراً في أمره وواصل التحديق خلسةً بميغريه، وقد بدت على سحنته معالم القلق المشوب بالإعجاب.

ـ «انا لا أفهم شيئاً!».

ـ «وأنـا أيضـاً!»

ـ «إذ يبـدو الأمـر وكأن غرافوبولوس إنما قَدِم الى لييج لكي يُعـرّض نفسـه للقتـل. وللمناسبة، لقد حانَ الوقت لإبلاغ ذويه. سأقصد قنصل اليونان غداً صباحاً».

تناول ميغريه قبعته المستديرة وبدا مستعداً للمغادرة.

ـ «حاول أن لا تغدق عليَّ الكثير من المراعاة أمام الصحافيين!» قال له منبّهاً.

وفتـح الكوميسير الباب فطالعهما في مكتب المفتشين الفسيح نصف دزينة من المراسلين الصحافيين يتحلّقون حول رجل عرفه السيّد دلفيني على الفور.

كان ذلك الرجل مدير «الأوتيل مودرن» الذي جاء لزيارته خلال فتـرة ما بعد الظهر. وكان يتحدّث بطلاقة الى الصحافيين الذين انكبوا على تدوين أقواله. وفجأة استدار ورأى ميغريه فأشار اليه باصبعه ممتقعاً.

ـ «إنه هو! صرخ قائلاً. لا مجالَ للشك!».

ـ أعلم ذلك! لقد اعترف للتوّ انه نزل في فندقك».

ـ «واعترف أيضاً انه أخذ الحقيبة؟»

فلم يفهم السيد دلفيني.

ـ «أية حقيبة؟».

ـ «حقيبة القنب بحقّ السماء! إن كثرة الخدم الذين يعملون

نهاراً في الفندق كمياومين قد أربكني فعلاً وكدت اغفل عن الأمر تماماً...».

- «أفصح».

- «سأفعل! في كلّ طبقة من طبقات الفندق توضع في الرواق حقيبة من القنب تستخدم لجمع الغسيل المتسخ. والحال أنّ هذه الحقائب قد أعيدت لنا منذ قليل من المصبغة فانتبهت الى أن هناك حقيبة مفقودة: حقيبة الطبقة الثالثة. وسألت عاملة التنظيفات فزعمت هذه الأخيرة انها ظنّت أن الحقيبة قد نقلت من مكانها بهدف إصلاح غطائها الذي كان لا يقفل جيّداً...».

- «وماذا عن الغسيل الذي كان فيها؟».

- «هذا أغرب ما في الأمر! لقد عثر على الغسيل الذي كان في داخلها في حقيبة الطبقة الثانية».

- «هل أنت واثق من أن الحقيبة التي وضعت فيها الجثة هي نفسها حقيبة الطبقة الثالثة؟».

- «لقد عدت لتوي من المشرحة حيث شاهدت الحقيبة وتفحّصتها».

كان الرجلُ يُجيب عن الأسئلة لاهثاً. إذ استبدّ به القلق لتورطه رغماً عنه في هذه القضيّة.

إلّا أن الأشدّ اضطراباً كان الكوميسير دلفيني نفسه، إذ بات عاجزاً حتّى عن الالتفات نحو ميغريه. وبلغ به الاضطراب ان نسي تماماً وجود الصحافيين والاتفاق الذي تمّ بينهما قبل قليل.

- «ما تعليقك على أقوال الرجل؟».

- «لا تعليق»، أجاب ميغريه بلهجة قاطعة.

- «ويجـدر القـول، أردف مديـر الفنـدق قائلاً، انه قد يكون استطاع مغادرة الفندق دون أن يراه أحد. فالدخول الى الفندق ليلاً يتمّ بعد قرع الجرس فيشدّ البواب حبل المزلاج دون أن يضطر الى مغادرة سريره. أما مَنْ يريد أن يغادر فليس عليه إلاّ أن يدير قبضة الباب».

استطاع أحد الصحافيين من ذوي المواهب الفنية الأكيدة ان يرسم صورة سريعـة لميغـريه فيجعل وجهه لحيماً كلتوميّ الطابع وأضفى على قسماته شيئاً من الغموض.

مرّر السيد دلفيني أصابع كفّه في شعره وتمتم قائلاً:

- «هلاّ انتظرتم قليلاً في مكتبي؟».

كان حائراً لا يعرف الى أين ينظر. فسأله أحد المراسلين:

- «هل اعترف بشيء؟».

- «دعنـي وشأنـي!».

وقال ميغريه بهدوء:

- «أحذرك بأنني لن أجيب عن أي سؤال إضافي...».

- «جيرار! دع السيّارة تقترب!».

- «ألا ينبغي أن أوقع على إفادتي؟» سأل مدير الفندق.

- «فيما بعد...».

وسـاد جوّ من اللغط والفوضى. أما ميغريه فكان يدخن غليونه

متمهّلا صافناً يوزع نظراته الثاقبة على الحاضرين أحدهم تلو الآخر.

ـ «الأصفاد؟» سأل جيرار حين عاد.

ـ «أجل... لا... تعال من هنا، أنت...!».

كان يتعجّل وصولهما الى السيّارة للانفراد بالكوميسير.

ومـا إن سلكت السيـارة الشوارع المقفرة شرع يسأله بلهجة توسُّل تقريباً».

ـ «مـا معنى كل هذا؟».

ـ «مـاذا تقصـد؟».

ـ «قصّة الحقيبة. فهذا الرجل يتهمك بسرقة حقيبة من القنّب من فندقه. وهي الحقيبة التي عثر على الجثة في داخلها!».

ـ «بدا لي أنه يلمّح الى شيء من هذا القبيل».

كان وقع كلمة «يلـمّح» أشبه بالسخرية المتعمّدة بعد كل الوقائع التي أكد عليها مدير الفندق.

ـ «هل هذا صحيح؟».

وبدل أن يجيب مباشرةً شرع ميغريه يناقش.

ـ «حاصل القول ان هذه الحقيبة قد سرقت، وإمّا أن الفاعل غرافوبولوس وإما أن يكون أنا بالذات. فإذا كان غرافوبولس يجب أن نعترف أن الأمر يكون خارقاً للطبيعة! تخيل أن الرجل حرص على أن يحمل معه نعشه!...».

ـ «أرجو المعذرة... ولكن حين عرّفت عن نفسك، منذ قليل، لم يخطر لي أن أطلب... أعني... إثباتاً لـ ...».

فتش ميغريه في جيوبه وسرعان ما أطلع رفيقه على شارة الكوميسير.

ـ «أجل... أرجو المعذرة... ولكن حكاية الحقيبة...».

ثمّ فجأة كأن العتمة التي تسود داخل السيارة قد مدّته ببعض الجرأة:

ـ «أوتعلم، حتّى لو لم تطلعني على كلّ التفاصيل كنت مجبراً على اعتقالك بعد الإفادة التي أدلى بها هذا الرجل؟».

ـ «بالطبع!».

ـ «أكنت تتوقع مثل هذا الاتهام؟».

ـ «أنا؟... لا!».

ـ «وتعتقد أن غرافوبولوس هو من أخذ الحقيبة؟».

ـ «لا أعتقد شيئاً حتّى الآن!».

وسكت السيد دلفيني وقد احتقنت وجنتاه لنفاد صبره وانتحى الجانبَ الآخر من المقعد الخلفي. وفور وصولهما الى السجن أنجز الإجراءات الرسميّة بسرعة حريصاً على تجنّب نظرات رفيقه.

ـ «سيقتادك الحارس...»، قال بمثابة وداع.

ربّما كان عرضةً لتأنيب ضمير. فما إن عاد الى الشارع حتى راح يسأل نفسه إذا كان قد تصّرف بشيءٍ من الجفاء والفظاظة حيال زميله.

ـ «هو الذي أراد أن أعامله بقسوة!».

صحيح، ولكن فقط أمام الآخرين! ثمّ إنّ اتفاقهما تمّ قبل اتهام مدير الفندق. فهل كان ميغريه، لأنه شرطي باريسي، يسخر منه ويخدعه؟.

ـ «في مثل هذه الحال يكون مستحقاً لما أصابه...».

كان جيرار ينتظر عودة الكوميسير في المكتب منكباً على قراءة البنود التي نصّها الكوميسير ميغريه.

ـ «لقد أحرزنا تقدماً! قال بسرور بالغ حين رأى رئيسه!».

ـ «آه، الأنك ترى أننا أحرزنا تقدّماً!».

وكان في نبرة الرئيس ما يكفي لأن تجحظ عينا جيرار دهشةً.

ـ «أقصد.. اعتقال المشبوه.. والحقيبة التي...».

ـ «الحقيبة التي... بلى!... أنصحك بأن تواصل الحديث عنها، الحقيبة التي... صلني بعامل التلغراف...».

وما إن تمّ له ذلك حتى أملى عليه البرقية التالية:

«لجانب الشرطة القضائية في باريس،

«الرجاء إيفادنا بالأوصاف الكاملة وإذا أمكن الاضبارة الشخصية الكاملة للكوميسير ميغريه وذلك للضرورة القصوى».

«جهاز امن مدينة ليبيج».

*

* *

ـ «ماذا يعني كلّ هذا؟» تجرأ جيرّار على السؤال.

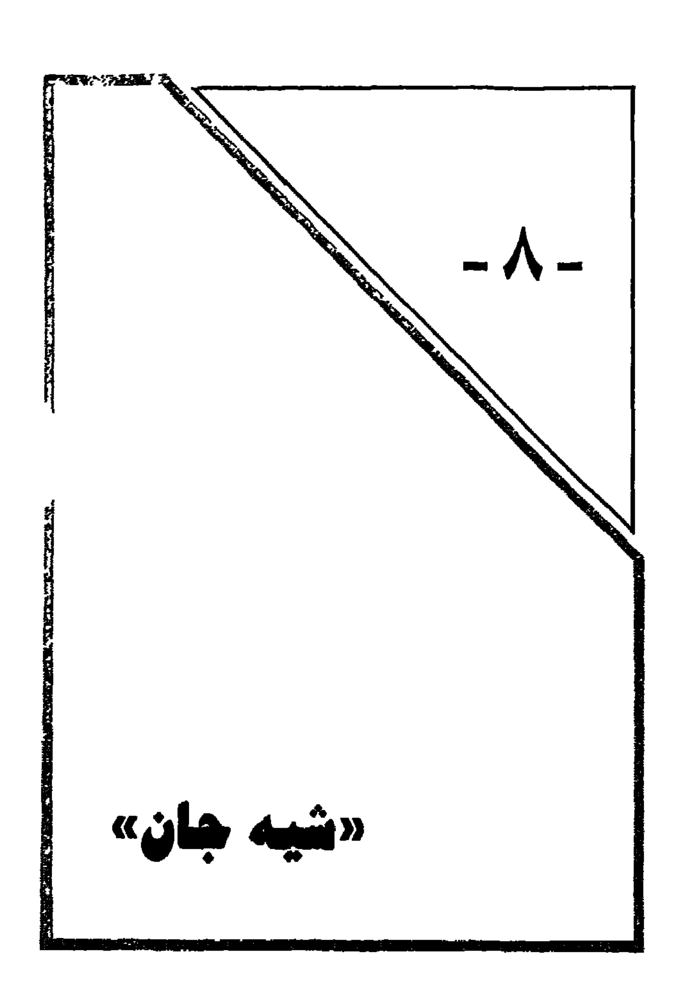
وكانت غلطة الشاطر. فصعقه الكوميسير بنظرة كاسرة.

ـ «هذا لا يعني شيئاً البتة، أتسمعني؟ هذا يعني ضقت ذرعاً بأسئلتك السخيفة!... هذا يعني أنني أريدك أن تدعني وشأني!... هذا يعني...».

وإذ تنبّـه الى سخف الموقف الذي يمليـه عليـه غضبه ختم مطالعته فجأةً بكلمة واحدة:

ـ «خـ...!».

ثمّ انفرد في مكتبه منكباً على بنود ميغريه الثلاثة عشر.



- ٨ -

«شيه جان»



ـ «إيّاك والتلاعب! قالت الفتاة البدينة بضحكةٍ داعرة. سوف يرانا الناس...».

ونهضت ثمّ اتجهت نحـو الواجهـة الزجـاجية المغطاة بستار شبكي، وسألته:

ـ «أتنتظر قطار بروكسيل؟».

كانـا في مقهى صغـير خلف محـطة غييومان. وكانت الصالة فسيحـة بعض الشيء ونـظيفة كأن زجاج نوافذها قد غُسِلَ للتوّ ودهنت طاولاتها بعناية بالغة.

«تعالي اجلسي! تمتم الرجل الجالسُ الى الطاولة وأمامه كوب بيرة.

ـ «أتعدني بأن تمكث عاقلاً؟».

وجلست المرأة وأمسكت بيد الرجل الملقاة على المقعد ووضعتها على الطاولة.

ـ «هل أنت وكيل مبيعات؟».

ـ «وهل يبدو عليّ أنني وكيل مبيعات؟».

ـ «لا... لست أدري... لا! إن حاولت التلاعب معي أقف عند العتبة... قل لي ماذا تشرب... الشراب نفسه؟ ولي أيضاً؟..».

ما كان يجعل المقهى مُريباً قد يكون مظهر النظافة المفرطة والترتيب ولمسة ما تجعله أقرب الى صالةٍ في منزل خاص منه الى مقهى أو مكانٍ عام.

كانت منصّة البار ضئيلة الحجم ولم تثبّت عليها. أذرع ضخّ البيرة، وعلى الرفّ المقابل وضعت أكواب لا يتجاوز عددها العشرين أو ربّما أقل. فوق إحدى الطاولات، قرب النافذة، وضعت علبة لأدوات الخياطة، وفوق طاولة أخرى سلة لوبياء صغيرة شرع أحدهم بتقميع خيوطها ثمّ غادرها لشاغلٍ ما.

كان المكان يوحي بالهفهفة وتفوح في أرجائه رائحة الحساء الساخن لا المشروبات الروحيّة. حتّى أن الداخل اليه ينتابه الشعور بأنه ينتهك حرمة المنزل الزوجي.

كانت المرأة التي قد تكون في الخامسة والثلاثين، مثيرة تجمع بين مظهري الأناقة والأمومة في وقتٍ معاً.

وكانت طيلة الوقت تصدّ يد الزبون الخجول التي كانت تلامس ركبتها من حين لآخر.

ـ «تعمل في تجارة المواد الغذائية؟. ».

وفجأة أصغت بانتباه. فثمة درج يفضي مباشرةً من الصالة الى الطبقة الأولى. وتناهت جلبة من فوق، كأنّ أحداً ما ينهض من نومه.

ـ «أستأذنك للحظات؟».

ودنت من الدرج مصغية، ثمّ سلكت الرواق ونادت:

ـ «سيّـد هنـري!...».

وعندما عادت كان الزبون حائراً، قلقاً، وزاد من حيرته أنه رأى رجلاً يخرج من غرفة مؤخّر المحلّ ويصعد الدرج دون أن يحدث جلبةً. ثمّ توارى جذعه، ثمّ توارت قدماه.

ـ «مـا الأمـر؟».

ـ «لا شيء... إنّه شاب سكِرَ ليلة أمس فنام في الطبقة العليا...».

ـ «و... السيّد هنري... أهو زوجك؟...».

فضحكت فاهتزّ عنقها اللحيم الرخو.

«انه صاحب المحلّ... أما أنا فلست سوى النادلة... انتبه... أقسم لك أنّ أحداً سيراك...».

ـ «مع أني... كنت أودّ...».

ـ «مـاذا؟».

واحتقنت الدماء في وجنتي الرجل. أحسّ بأنه مرتبك لا يعرف ما يجوز له أن يفعل وما لا يجوز. وراح يرمق رفيقته اللحيمة المهفهفة بعينين ملتمعتين.

ـ «أما من طريقة لنحظى بخلوةٍ ما؟» همسَ قائلاً.

ـ «أجننت؟... لـمَ الخلوة؟... إنه مقهى محترم...».

وتـوقفت عن الكـلام وأصغت مجـدّداً. تناهت الى مسامعهما أطرافُ حوار يدور في الطبقة العليا. كان السيّد هنري يردّ بصوتٍ هادىء وجاف على اتهامات محدّثه.

ـ «إنه صبي صغيرٌ!... قالت الفتاة البدينة. يثير الشفقة!... لم يبلغ العشرين بعد وتراه يثمل... كان يسرف في الشراب ويُنفق على شراب الحضور. أراد أن يتفاخر بماله أمامهم فاستغلّه البعض...».

فتح الباب في الطبقة العليا... وأصبحت الأصوات مسموعة

ـ «أقـول لك إنني كنت أحمل المئات من الفرنكات في جيبي سرقوها!... أريد مالي...».

ـ «مهلاً! مهلاً! ما من لصوصٍ هنا! لو انّك لم تثمل مثل خنزير...».

ـ «أنت من قدّم لي الشراب...».

ـ «إذا كنت اقدم الشراب للناس فلأنني أحسب أنهم على درجة من الذكاء تتيح لهم السهر على نقودهم ومحافظهم... ثمّ كان عليّ أن أمنعـك بالقـوة... لقد ذهبت لإحضار بعض فتيات الرصيف متذرعاً بأن الساقية في المقهى لا تعاملك بلطف... وكنت تريد أن تحجز غرفة للنوم.. ولست أدري ماذا أيضاً...».

ـ أعـد إليَّ مالي...».

ـ «مالك ليس معي وإذا تابعتَ جلبتك هذه فسأستدعي الشرطة...».

كان السيّد هنري لا يزال هادئاً فيما استبدّ الغضب بالشاب الذي كان يهبط الدرج متابعاً نقاشه الحادّ.

كان مشدود القسمات، متعب العينين، ثقيل اللسان.

ـ «أنتم لصوص!».

- «هلاّ ردّدت هذه العبارة...».

وانقضّ عليه السيد هنري متشبثاً بياقته.

وفجـأة كادت الكارثة أن تقع. فقد شهر الصبيّ مسدساً من جيبه وصرخ:

- «دعني وإلاّ...».

تشبث وكيل المبيعات بمقعده وأمسك مذعوراً بذراع رفيقته التي همّت بالنهوض.

جهد ضائع، فالسيد هنري، وهو الرجل الذي اعتاد بفعل مهنته على المشاجرات، عاجله بضربة قوية على ساعده أوقعت المسدس من يده.

- «افتحي الباب!...» قال للمرأة لاهثاً.

وعندما فتح الباب دفع الصبيّ الى الخارج بقوة فألقاه في وسط الرصيف. ثمّ لـمَّ المسدس عن الأرض ورمى به أيضاً الى الخارج.

- «تباً لهؤلاء السفلة الذين يشتمونك في عقر دارك!... بالأمس كان يلعب دور المكّار ويوزع أمواله لمن يرغب...».

سوّى تسريحة شعره وألقى نظرة خاطفة نحو الباب فإذا بشرطي يقف هناك.

- «أنت الشـاهـد على تهديداته لي، أليس كذلك؟ قال مخاطباً الزبون. على أية حال الشرطة تعرف جيّداً أن سمعة المقهى نظيفة...».

كان رينـه دلفـوس واقفـاً على الرصيف وقـد اتسـخت ثيـابه

واصطكت أسنانه غيظاً. وراح يجيب عن أسئلة الشرطي دون أن يدرك تماماً ماذا يقول.

ـ «تقـول انهم سرقوا أموالك؟ أوّلاً، مَنْ أنت؟ أعطني أوراقك الثبوتية... ولمن هذا السلاح؟...».

تجمهـر عدد من المـارة. وعددٌ آخر كان يطلّ برأسه من باب الحافلة الكهربائية.

ـ «ثم اتبعني الى المخفر...».

*

* *

ما إن وصلا الى المخفر حتى انتابت دلفوس نوبة غيظ عارمة فراح يركل الشرطي. وعندما استجوبه الكوميسير روى أنه فرنسي وأنه وصل الى لييج ليلة البارحة.

ـ «وفي ذلك المقهى دفعوني الى الشراب حتى ثملت فسطوا على مالي...».

إلّا أن شرطياً كان يقف هناك عرفه ودنا من الكوميسير هامساً في أذنه. فابتسم هذا الأخير مغتبطاً.

ـ «ألا تُدعى رينه دلفوس؟».

ـ «لا شأن لك باسمي...».

قلّما يشهد المخفر زبائن من هذا النوع المعاند. فقد مكث الفتى مطرقاً مشدود القسمات.

ـ «والمال الذي سرق منك، أليس هو نفسه المال الذي سرقته أنت من احدى الراقصات؟».

ـ «غير صحيح!».

ـ «مهلاً يا بنيّ! مهلاً! سنحيلك الى الشرطة القضائية! فليُتّصل بالكوميسير دلفيني للاستفسار عمّا سنفعله بهذا الصوص...».

ـ «إني جائع!» قال دلفوس بنبرةِ تأنيب كأنه طفل مشاكس.

اكتفى الكوميسير بهزّ كتفيه.

ـ «لا يحق لكم أن تمنعوا عني الطعام... سأتقدم بشكوى. سأ...».

ـ «اذهب وأحضر له سندويشاً من المقهى المجاور...».

قضمَ دلفوس من السندويش لقمتين ثمّ رمى به أرضاً بحركة تقزز.

«آلو!... أجل... إنه هنا... حسناً!... ستقلّه السيّارة فوراً... لا... لا شيء...».

في السيّارة جلس دلفوس بين شرطيين ولزم في البداية صمتاً مطبقاً. ثمّ دون أن يسأله أحد، تمتم قائلاً:

ـ «مع ذلك لست أنا القاتل... بل شابو...».

لم يُعِرهُ الشرطيان اهتماماً.

ـ «سيرفع والدي الشكوى الى الحاكم، فهو صديق له... لم اقترف ذنباً!... لقد سرقوا محفظتي، وهذا الصباح أراد صاحب المقهى أن يطردني بعد أن جرّدت من كل أموالي...».

ـ «ولكن المسدّس لك؟».

ـ «له... كان يهـدّدنـي باطلاق النـار عليّ إن تسـببتُ بأي ضوضاء... وما عليكم إلّا أن تسألوا الزبون الذي كان هناك...».

وفور دخوله الى مركز الشرطة القضائية، رفع رأسه وحاول أن يتخذ مظهر الرجل الرصين الواثق من نفسه.

ـ «آه! إنـه الفتى المقدام!... قال أحد المفتشين وهو يصافح زملاءه متأملاً دلفوس من رأسه حتى أخمص قدميه. سأزف النبأ الى الرئيس...».

وعاد بعد برهة وقال بقليل من الحماس

ـ «لينتظـر!...».

وبدت معالم القنوطوالقلق على وجه الفتى الذي رفض أن يجلس على الكـرسيّ التي أشـاروا عليه بها. وأراد أن يشعل سيجارة، فاختطفها أحدهم من بين أصابعه.

ـ «ليس هنا...».

ـ «ولكنكم تدخنون!».

وسمع تمتمة المفتش الذي غادرهـم مبتعداً وهو يقول:

ـ «.. يا له من ديك مشاكس...».

ومن حوله واصل الحاضرون تدخينهم وكتابتهم وتصفّح ملفاتهم وبين الحين والآخر كانوا يتبادلون بعض العبارات العاجلة.

ثمّ سمع جرس كهربائي. فقال المفتش لدلفوس دون أن يتحرك من مكانه:

ـ «بإمكانك أن تدخل لمقابلة الرئيس... البابُ الأخير...».

لم يكن المكتبُ فسيحاً وفي الداخلِ يسودُ عبق أزرق من دخان الغليون والمدفأة التي أشعلت نيرانها لأوّل مرّة منذ بداية الخريف، تحدث هديراً مسموعاً كلّما هبت رياح.

كان الكوميسير دلفيني جالساً فوق مقعده كأنّه عاهلٌ يعتلي عرشاً. وفي مؤخرة الحجرة، قرب النافذة، في ركن من الظلالِ، جلس شخص آخر فوق كرسيّ.

ـ «أدخل!... اجلس...».

ونهض الجالسُ فجأةً، وأصبح بالإمكان التعرّف الى وجه جان شابو الشاحب وقد التفت نحو صديقه.

ثمّ قال دلفوس ساخراً:

ـ «لماذا أتيتم بي الى هنا؟».

ـ «لا لسببٍ معيّن، أيّها الفتى! نريد فقط أن نطرح عليك بعض الأسئلة...».

ـ «لم افعل شيئاً».

ـ «وأنا لم أتهمك بشيء بعد...».

ومخاطباً شابو، قال رينه مويخاً

ـ «ماذا قال؟... لقد روى الأكاذيب، أنا واثق من ذلك...».

ـ «مهلاً! مهلاً! وحاول أن تردّ على اسئلتي... امّا انت فامكث في مكانك...».

ـ «ولكن...».

ـ «قلت لك امكث جالساً في مكانك... والآن دلفوس يا صغيري، أخبرني ماذا كنت تفعل في مقهى «شيه جان»...».

ـ «لقد سرقوا أموالي...».

ـ «ولكن مهلاً؟... لقد وصلت الى المقهى بعد ظهر البارحة وكنت ثملاً... أردت أن تصحب الساقية الى الطبقة العليا فرفضت، فخرجت لتعثر على امرأةٍ من الشارع...».

ـ «إنه حقي الطبيعي».

ـ «لقد دفعت ثمن الشراب للجميع... وخلال ساعات طويلة كنت نجم السهرة... إلى أن وقعت لفرط سكرك، وتدحرجت تحت الطاولات. فأشفق عليك صاحب المحلّ ونقلك الى أحد الأسّرة لتنام...».

ـ «لقد سرقني...».

ـ «هذا يعني أنك بذّرت كيفما اتفق مالاً ليس لك... صادف أنه المال الذي اختلسته صباحاً من حقيبة أديل...».

ـ «غير صحيح!».

ـ «ومن أصل المال الذي اختلسته ابتعت هذا المسدس . لماذا ابتعتَ مسدّساً؟...».

ـ «لأنني كنت راغباً في امتلاكِ مسدّس!».

كانت سحنة شابو التي اكتست بملامح الذهول أشبه بمنظر مثير. كان يرمق صديقه باستهجان لا يوصف. كأنّه لا يصدّق أذنيه. وبدا كأنّه يكتشف فجأةً وجهاً آخر لدلفوس يثيرُ في كيانه الرعب. أراد أن يتدخل، يقاطعه، يقول له أن يصمت.

ـ «لماذا سرقت مال أديل؟».

ـ «هي التي أعطتني المال».

ـ «لقد أفادتنا بما ينقض مزاعمك كلّها. لا بل تتهمك صراحةً!».

ـ «إنها كاذبة! هي التي أعطتني المال لشراء تذكرتي قطار، لأننا عزمنا على الرحيل معاً...».

كان واضحاً انه يرمي بعباراته جزافاً دون تمعن، ودون أدنى حرص منه على تحاشي الأقوال المتناقضة.

ـ «وقد تنكر أيضاً أنّك كنت مختبئاً، منذ ليلتين، عند درج القبو في ملهى الفيه مولان...».

انحنى شابو الى الأمام كأنّه يريد أن يقول:

ـ «انتبه! لا سبيل للإنكار... فقد كان ينبغي...».

ولكن دلفوس كان قد انتصب واقفاً واستدار محدّجاً رفيقه ثمّ زعق قائلاً:

ـ «أهو الذي روى هذه الحكاية أيضاً!... لقد كذب! أراد أن أمكث برفقته!... من جهتي، لست في حاجةٍ الى المال! فوالدي ثري!... وليس لي إلّا أن أطلب اليه المال... إنه هو... هو الذي راودته فكرة...».

ـ «ولذلك غادرت على الفور؟».

ـ «أجل...».

ـ «هل عدت الى منزلك؟».

ـ «أجل...».

ـ «بعد أن تناولت طبقاً من البطاطا المقلية وبلح البحر في شارع بون دافروي...».

ـ «أجل... على ما أظنّ...».

ـ «في تلك الأثناء كنت برفقة شابو! لقد أفادنا النادل بتفاصيل هذا الأمر!».

كان شابو يفرك يديه وظلت نظراته متوسّلةً.

ـ «ومع ذلك لم أقترف ذنباً! قال دلفوس معانداً».

ـ «لم أقل لك إنك فعلت شيئاً».

ـ «إذاً».

ـ «إذاً، لا شيء!».

استعاد دلفوس أنفاسه، ومكث ينظر بمواربة.

ـ «أأنت من أعطى إشارة الخروج من درج القبو؟».

ـ «غير صحيح».

ـ «بأية حال، أنت من كان يسير في الطليعة، وأوّل من رأى الجثة...».

ـ «غير صحيح».

ـ «رينه!...» صرخ شابو وقد طفح به الكيل.

ومجدداً أرغمه الكوميسير على ملازمة مكانه صامتاً. ولكنّه واصل غمغمته كمن خارت قواه:

ـ «أنا لا أفهم ما الذي يدعوه الى الكذب... نحن لم نقتل أحداً... حتى أننا لم يكن لدينا متسع من الوقت لكي نسرق... كان

يتقدّمني... وأشعل عود ثقاب... أما أنا فبالكاد لمحت التركي... كلّ ما في الأمر أنني فطنتُ لوجود شيء ما على الأرض... حتى أنه قال لي فيما بعد إن القتيل كان فاغراً الفم واحدى عينيه جاحظة...».

ـ «إن ما ترويه لمثير حقاً!» قال دلفوس هازئاً.

وفي تلك اللحظة كان شابو يبدو أصغر من صديقه بخمسة أعوام على الأقل، ولذلك يعوزه الكثير من القدرةِ على التحمّل إذ كان مشوَّش الذهن، غائم الأفكار، ويشعر بأن كلامه لا يقنع أحداً، وأنّه في هذه المناظرة الدائرة، الأقلّ بأساً وقوّة.

وكان السيّد دلفيني يرمقهما على التوالي.

ـ «يجب أن تتفقا على رواية واحدة، أيها الصغيران. لقد شعرتما بالهلع فهرعتما الى الخارج دون أن تغلقا الباب وراءكما... ثمّ ذهبتما لتناول البطاطا المقلية وبلح البحر».

ثمّ قال وقد شخصت عيناه في عيني دلفوس بغتةً:

ـ «ولكن أخبرني! هل لمست الجثة؟».

ـ «أنا؟... لا، على الاطلاق!...».

ـ «وهل رأيت حقيبة من القنّب في الجوار؟».

ـ «لا... لم أر شيئاً...».

ـ «كم مرّة اختلست مالاً من صندوق متجر خالك؟».

ـ «أهو شابو الذي أفادكم بهذا أيضاً؟».

ثمّ صرخ وقد شدّ قبضته بقوة.

ـ «إنه كلب حقير!... وله الجرأة... إنه يخترع قصصاً كيفما

اتفق!... لأنّه كان يختلس مالاً من «حساب النثريّات»! وكنتُ أعطيه دائماً ما يسدّد به ما اختلسه...».

ـ «أصمت!» قال شابو متوسّلاً وقد ضمّ كفيه بحركة رجاء.

ـ «أنت تعلم جيّداً أنّك كاذب!».

ـ «أنت الكاذب!... اسمع يا رينه! القاتل... هو...».

ـ «ماذا تقول؟».

ـ «أقول إن القاتل قد اعتقل...».

فنظر دلفوس الى السيد دلفيني، وسأله بصوت مضطرب.

ـ «ما هذا الهراء الذي يقوله؟... الـ... إلقا...».

ـ «ألم تقرأ الصحف؟... صحيح إذاً أنّك كنت غافلاً عن الدنيا... ستقول لي الآن إذا كنت تتعرّف الى الرجل الذي صادفتماه تلك الليلة في الغيه مولان، ثمّ تعقبكما في اليوم التالي في الشوارع...».

في تلك اللحظة مسح رينه العرق المتصبب من وجهه، ومكث لا يجرؤ على النظر الى الزاوية حيث يجلس صديقه. تناهى صوت الجرس من غرفة المكتب المجاور. وكان على أحدهم أن يذهب لإحضار ميغريه من حجرة محاذية، فتح الباب. فدخل مصحوباً بالمفتش جيرار...

ـ «هيّا أسرع!... وقِفْ في الضوء، أرجوك... إذاً يا دلفوس، هل تعرف الرجل؟...».

ـ «إنــه هــو!».

ـ «ألم تره من قبل؟».

ـ «أبـداً!».

ـ «ولم يسبق له أن توجّه اليك بالكلام؟».

ـ «لا أعتقـد...».

ـ «ألم تلمحـه مثـلاً فور مغـادرتكما الغيه مولان متسكعاً في الأنحاء؟.. فكّر ملياً .. حاول أن تستجمع كلّ ذكرياتك...».

ـ «مهـلاً... بلى... ربّمـا... لقـد لمحت أحداً عند ناصية أحد الشوارع وأحسبُ الآن أنه ربّما كان هو...».

ـ «ربّمـا؟».

ـ «بالتأكيـد... بلـى...».

بدا ميغريه الواقف وسط الحجرة الضيقة، هائلَ الحجمِ. ولكن عندما شرع يتكلم، كان صوته هادئاً، بالغ الرقّة.

ـ «كنتما لا تحملان مصباح جيب، أليس كذلك؟...».

ـ «لا.. لماذا؟».

ـ «ولم تضيئـا مصابيح الصالة... إذاً اكتفيتما باشعال عود ثقاب... هلاّ أخبرتني كم كانت المسافة التي تفصلك عن الجثة؟...».

ـ «ولكن... لا أدري...».

ـ «هل كانت المسافة أكبر من المسافة بين جداري غرفة المكتب هذه؟...».

ـ «على مسافة مماثلة تقريباً...».

ـ «إذاً، تبلغ المسـافـة أربعة أمتار. وكنتما، أنت وصديقك، مضـطربـين.. إذ تقـومان بأوّل عملية سطو حقيقية... شاهدتما

جسماً ممدّداً على الأرض فاستنتجتما على الفور انها جثة... لم تقتربا... ولم تلمسا الجثة... حتى انكما لستما واثقين من أن الرجلَ كان ميتاً بالفعل... من كان يحمل عود الثقاب؟...».

ـ «أنا! اعترف دلفوس».

ـ «وهل اشتعل طويلاً؟».

ـ «لقد أوقعته من يدي على الفور...».

ـ «إذاً لم يسلط الضوء الخافت على الجثة إلّا لبضع ثوان! فهل أنت واثق يا دلفوس من أنّك تعرّفت الى جثة غرافوبولوس؟».

ـ «لقد رأيت شعراً أسود...».

وتلفت من حوله مذهولاً. إذ أدرك فجأةً أنه يخضع لاستجواب حقيقي وأنه استدرج الى الإجابة دون أن يعي ذلك. فصرخ قائلاً:

ـ «لن أجيب إلّا عن أسئلة الكوميسير!».

وكان الكوميسير في تلك الأثناء قد رفع سمّاعة الهاتف. وارتعدت أوصال دلفوس حين سمع الأرقام التي طلبها.

ـ «آلو!... السيّد دلفوس؟... أريد فقط أن أعرف إذا كنت لا تزال مستعداً لدفع كفالة الخمسين ألف فرنك... لقد تحدثت الى قاضي التحقيق، الذي استشار مكتب النائب العام... أجل... اتفقنا... لا! لا تكبد نفسك عناء هذه المشقة... الأفضل أن يتمّ ذلك مباشرةً...».

كان رينه دلفوس لا يزال غير مدرك تماماً ما الذي يجري من حوله. أما جان شابو فمكث في ركنه لا يحرّك ساكناً.

ـ «أمـا زلت مصّراً يا دلفوس على اتهامك شابو بأنّه هو الذي خطّط ونفّذ؟...».

ـ «أجـل».

ـ «في هذه الحال، إني أطلق سراحك... عُد الى منزلك... وقد قطع لي والدك عهداً بأنه لن يلومك على شيء... مهلاً! وأنت، يا شابو، أما زلت مصّراً على زعمك بأن دلفوس هو الذي سرق المال الذي كنت تحاول أن ترمي به في المرحاض؟...».

ـ «إنه هو... أ...».

ـ «في هذه الحال، تدبّر أمرك معه... إذهبا أنتما الإثنان!... فقط حاولا أن لا تثيرا أية فضيحة وتجنّبا لفت الانتباه قدر المستطاع...».

وكان ميغريه قد أخرج غليونه من جيب سترته بحركة عفوية. إلاّ أنه لم يشعله. كان يرمق الشابين اللذين أُسقط في يدهما ولا يعرفان بالضبط ماذا يفعلان أو يقولان. فكان على الكوميسير دلفيني أن ينهض من مكانه ويدفعهما الى الخارج دفعاً.

ـ «إيّاكما والمشاحنات فيما بينكما... ولا ينسى أحدكما أنكما ما زلتما بتصّرف العدالة...».

اجتازا بخطى سريعة غرفة المفتشين وما إن أصبحا عند الباب حتّى التفت دلفوس، مغيظاً، نحو رفيقه وشرع يلقي خطاباً حماسيّاً لم يُسمع من مضمونه شيء.

*

* *

الهاتف يـرن.

ـ «آلو! الكوميسير دلفيني؟... أرجو المعذرة يا سيدي المفتش لإزعاجك . هنا، السيد شابو الأب .. أيجوز لي أن أسأل إذا طرأ جديد ما على القضيّة؟...».

ابتسم الكوميسير ووضع غليونه على الطاولة غامزاً ميغريه

ـ «لقد غادر دلفوس المركز منذ دقائق، وبرفقته ابنك.. »

ـ «...».

ـ «بـالطبـع! سيصـلان خلال دقائق... آلو!. اسمح لي أن أنصحك بأن لا تكون بالغ القسوة حياله».

كان المطر ينهمر بغزارة وكان شابو ودلفوس يُسرعان في مشيهما من رصيف الى آخر مخترقين حشدَ المارّة الذين لم يكترثوا لأمرهما. لم يكن ما دار بينهما في الأثنـاء محادثة متصلة. بل بين الفينة والفينـة، كان أحـدهما يلتفت نحو رفيقه ويخاطبه بعبارة جارحة تستدعي من المخاطب جواباً أشد قسوة.

عند ناصية شارع بويزونسوك، انعطفا، وسلك أحدهما الجهة اليمنى فيما سلك الآخر الجهة اليسرى، لكي يصل كلٌّ منهما الى داره.

ـ «لقد أصبح طليقاً، هذا السيّد! لقد أقرّوا ببراءته!».

وكان السيد شابو قد غادر مكتبه وبعد انتظار الحافلة رقم ٤، صعد الى جوار السائق الذي كان يعرفه منذ سنوات طويلة.

ـ «انتبه جيّداً! لا أريد أعطالاً طارئة اليوم!... لقد أطلقوا سراح

ابني!... لقد اتصل بي الكوميسير شخصياً ليقول لي إنه أخطأ...».

وبدا شديد الإضطراب يصعبُ القول إذا كان يضحك أو يبكي.

إلّا أن غشاوةً كست عينيه فحجبت عنه رؤية الشوارع المألوفة التي تعبرها الحافلة مسرعةً.

ـ «قد أصل الى البيت قبل أن يصل هو!... فالأفضل أن أكون هناك لاستقباله لأن زوجتي قادرة على ابتكار الأسوأ... ثمة أشياء لا تدركها النساء عادة... فهل صدّقت أنت، ولو للحظة واحدة، أنه مذنب..؟.. قُل دون مراعاة؟. .».

كان كلامه مؤثراً. كأنه يستجدي الجواب المطمئن من سائق الحافلة.

ـ «أنا، أنت تعلم جيداً.. ».

ـ «لا بدّ أن تكون لك وجهة نظر. ».

ـ «منذ أن أرغمت ابنتي على الزواج من متبطّل لا نفع منه كانت قد حملت منه سفاحاً، أصبحت لا أثق كثيراً بشبّان اليوم...».

كان ميغريه قد اقتعد الكنبة التي غادرها شابو، قبالة مكتب الكوميسير دلفيني، وأمسك بيده علبة التبغ التي كانت على الطاولة أمام الكوميسير.

ـ «هل تلقيت جواب باريس؟».

ـ «وكيف علمت بالأمر؟».

ـ «هيّا! لو كنت انت المعني لخمّنت مثلي... وحقيبة القنب؟ هل

أمكن التثبت من طريقة نقلها خارج الفندق؟».

ـ «لا، لا شيء!».

كان السيد دلقيني مقطِّباً لفرط انزعاجه من سلوكِ زميله الباريسي.

ـ «الكلام في سِّرك، لا بدَّ أنك تهزأ بنا، أليس كذلك؟ أعترف أنك تعلم ما تخفيه عنّا...».

ـ «لي الآن أن أجيب: لا شيء البتّة! إنها الحقيقة! ما توافر لدي من عناصر التحقيق لا يختلف عمّا توافر لديكم! ولو كان علي أن أتخذ القرار لحذوت حذوك وأفرجت عن الشابين! ولسعيتُ، على سبيل المثال، أن أعرف ما الذي استطاع غرافوبولوس أن يسرقه من الغيه مولان...».

ـ «ما سرقه؟».

ـ «أو حاول سرقته!».

ـ «هو؟... القتيل؟...».

ـ «بتّ لا أفهم شيئاً!».

ـ «مهلاً! استطاع أو حاول أن يقتل...».

ـ «أرأيت الآن أن ما اجتمع لديك من معلومات يفوق بكثير ما اجتمع لدينا...».

ـ «القليل القليل منها! والفارق الرئيسي بيننا هو أنك أمضيت ساعاتٍ طويلة في حالة اضطراب وسعي، من مكتب النائب العام الى المركز، ثمّ استقبال عدد من الناس واجراء الاتصالات الهاتفية، في

الوقت الذي كنتُ أنعمُ فيه بالهدوء التام في زنزانتي في سجن سان ليونار...».

ـ «وهل فكّرت ملياً في بنودك الثلاثة عشر!» أجاب السيد دلفيني بشيء من الحدّة.

ـ «ليس في البنود كلّها... في بعضها...».

ـ «مثلاً، حقيبة القنّب!».

فارتسمت على شفتي ميغريه ابتسامة عريضة.

ـ «مجدّداً؟. . هيّا! يجدر بي أن أقول لك على الفور إنني أخذت الحقيبة من الفندق...».

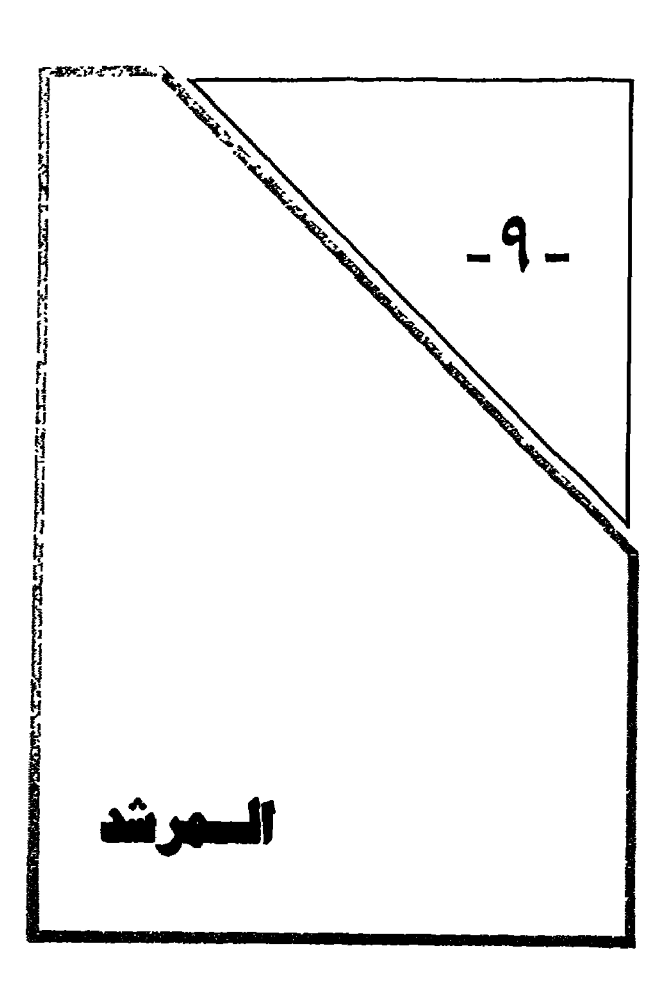
ـ «فارغة؟».

ـ «لا مطلقاً! مع الجثة في داخلها!».

ـ «أي انك تزعم أن الجريمة؟...

ـ «وقعت في «أوتيل مودرن» وفي غرفة غرافوبولوس. ولعلّ هذا هو الجزء الشائك من القضيّة... الديك علبة ثقاب؟...».




-٩-
المرشد



استرخى ميغريه فوق الكنبة وألقى ظهره على مسندها؛ تردّد قليلاً على جاري عادته حين يكون على اهبة الشروع في شرح طويل، كأنّه يحاول الإهتداء الى أشد النبرات بساطة.

ـ «لن تلبث أن تفهم كلّ شيء كما فهمت الأمور من جهتي، وأرجو أن تغفر لي بعض الخداع الذي لجأت اليه في السابق. لنبدأ بزيارة غرافـوبولوس الى مركز الشرطة في باريس. فهو لم يعطِ أي تفسير لخطوته تلك. وغداة زيارته راح يتصّرف وكأنه نادم على ما فعل.

«أول ما يتبادر الى الذهن هو أنه رجل معتوه، أو رجل تتحكم به عقدة الاضطهاد...

«أما الفرضيّة الثانية فتقر بأنه كان مهدّداً فعلاً، لكنّه بعد التفكير اتضح له أنه لن يكون في مأمن برغم حماية الشرطة...

«الفرضية الثالثة تقول انه شعر في وقتٍ ما بحاجةٍ لأن يكون مُراقباً...

«والآن سأخوض في تفاصيل ما سبق، نحن بصدد رجلٍ ناضج يتمتع بثروة كبيرة وليست له في الظاهر آية ارتباطات. ولذلك بامكانه

أن يستقل الطائرة أو القطار وأن يقصد المكان الذي يحلو له دون أن يثير أية شبهة.

«فأي تهديد من شأنه أن يرغمه على اللجوء الى الشرطة؟ امرأة دفعتها غيرتها الى تهديده بالقتل؟ لا أعتقد. إذ يكفي أن يبتعد عنها لكي يزول عنه خطر تهديداتها.

«عدو شخصي؟ رجل مثله، وهو ابن مصرفي كبير، لن يعدم وسيلة لدفع الشرطة الى اعتقاله!

«لم يكن خائفاً في باريس وحسب، بل كان خائفاً في القطار، وفي لييج...

«لذلك توصلت الى الاستنتاج التالي أن الرجل لم يتعرّض لتهديدات شخص ما يناصبه العداء، بل لتهديدات منظمة، لا بل منظمة عالمية.

«أكرّر أنه رجل ثري. فلو كان الأمر من عمل حفنة لصوص يريدون ابتزاز أمواله لما عمدوا الى تهديده بالقتل، وبأية حال، ما كان غرافوبولوس ليعدم وسيلة تقيه شَرهم وأبسط هذه الوسائل أن يبلغ الشرطة بتهديداتهم.

«والحالُ أن حماية الشرطة لم تبدّد خوفه...

«كان التهديد يلاحقه أينما حلَّ، في كلّ مدينةٍ وكلّ مكان وفي كلّ الظروف!

«تماماً كأنه كان ينتمي الى جمعية سريّة، ثمّ خان عهدها، فحكمت عليه بالموت...

«المافيا، مثلاً!... أو ربّما أحد أجهزة التجسس!... فهناك عدد كبير من اليونانيين في أجهزة التجسس... وسيفيدنا المكتب الثاني حول نشاطات غرافوبولوس الأب خلال الحرب...

«لنفترض أن الابن قد ارتكب خيانة ما، أو أنه ببساطة، شعر بالملل من مثـل هذه الارتباطات وأبدى رغبته في استعادة حريّته. فيتلقى تهـديـداً بالموت ويتم تحذيره أن العقوبة ستنفذ في حقه عاجلاً أم آجلاً. فيأتي لزيارتي، ولكنّه سرعان ما يدرك أن حماية الشرطة لن تجديه نفعاً وإذ يستبدّ به القلق، يبلغ به انفعاله حدّ الجنون.

«ولكن العكس صحيح أيضاً...

ـ «العكس؟ قال السيد دلفيني بذهول بعد أن أصغى مطوّلاً بانتباه شديد أعترف لك أنني لا أفهم شيئاً».

ـ «إن غرافـوبـولوس من الطراز الذي يُطلق عليه عادة صفة «الابن المـدلل». انـه رجـلٌ متبطل. وخلال أسفاره الكثيرة يرتبط بمجموعة ما، مافيا أو منظمة تجسس، رغبةً منه في اختبار حياة الإثارة. ويقسم يمين الولاء والطاعة العمياء لرؤسائه. وذات يوم يتلقّى أمراً بالقتل...».

ـ «فيلجأ الى الشرطة؟».

ـ «اسمعني جيّداً! يُطلب اليه مثلاً أن يأتي لقتل أحد هنا، في لييج، في تلك الأثناء يكون غرافوبولوس في باريس. إنه رجل فوق الشبهات. يرفض الانصياع للأمر، ولكي يتجنب الانصياع له يلجأ الى الشرطة، ويـطلب حمايتها. ويتصل بشركائه ليبلغهم استحالة تنفيذ المهمة لأن الشرطة تتعقبه. ولكنّ الخدعة لا تنطلي على الشركاء

ويجددون أوامرهم بتنفيذ المهمّة. . وهذا هو التفسير الثاني... فإما أن يكون أحد التفسيرين صحيحاً وإمّا أن يكون صاحبنا مختلّ العقل، وإذا كان مختلاً فما من مبرِّر حقيقي لأن يتعرّض للقتل!».

ـ «انه أمر محيِّر!» قال الكوميسير دلفيني دون أن يكون مقتنعاً تماماً.

ـ «الخلاصة أنه حين غادر باريس، جاء الى لييج لكي يقتل أو لكي يتعرّض للقتل».

وكان غليون ميغريه يستعر جمراً ودخاناً، فيما حرصَ، في كلّ ما قاله، على الاحتفاظ بسوية النبرة الطبيعية.

ـ «وفي آخر الأمر تعرّض صاحبنا للقتل، ولكن هذا لا يثبت شيئاً. وفي استعادة سريعة لأحداث الأمسية نرى ما يلي. يقصد الغيه مولان ويمضي سهرته هناك برفقة الراقصة أديل. ثمّ تغادره الراقصة وترافقني بعض الطريق. وحين أعود أدراجي أرى أن صاحب المحلّ وفيكتور قد أقفلا الباب ويهمّان بالمغادرة. وبدا الملهى خالياً. أحسب أن غرافوبولوس قد غادر فأبحث عنه في ملاهي المدينة الأخرى.

«عند الرابعة فجراً أعود الى فندق «أوتيل مودرن». وقبل أن ألجأ الى غرفتي أذهب للتثبت من أن اليوناني ما زال خارج الفندق أمكث وراء الباب منصتاً فلا أسمع صوت تنفس. أفتح الباب قليلاً وأجده ممدّداً على الأرض قرب السرير في كامل ثيابه وقد شجَّ رأسه بأداة حادة.

«تلك هي الوقائع التي انطلقت منها، أوردتها لك باختصار. لم أعثر على محفظة المجني عليه. وبعد تفتيش الغرفة لم أعثر على أي

ورقةٍ من شأنها أن تكون دليلاً، كما لم أعثر على أي سلاح أو أداة أو أثر...».

ولم ينتظر الكوميسير ميغريه جواب زميله.

ـ «لقد حدّثتك في البداية عن المافيا ومنظمات الجاسوسية، وبأية حال عن منظمة عالمية ما، تكون وحدها القادرة على تنفيذ مثل هذه الجريمة. فقد ارتكبت الجريمة ببراعةٍ نادرة. فقد تمّ اخفاء أداة الجريمة ولم نعثر على طرف خيط واحد، ولا حتّى اشارة بسيطة من شأنها أن تقود التحقيق في وجهةٍ معقولة

«ولا جدوى من الشروع في التحقيق، في اجراءاته العادية، انطلاقاً من فندق «أوتيل مودرن»!

«فالجماعة التي نفّذت الجريمة اتخذت كلّ الاحتياطات اللازمة. ولم تدع تفصيلاً صغيراً للمصادفة!

«ولأنني واثق من حسن درايتهم وانهم يتحسّبون لأيّ شيء، أحاول أن أخلط الأوراق. لقد تركوا الجثة في الفندق! حسناً إذاً، أقوم بنقل الجثة في حقيبة من القنب الى حديقة الحيوانات بمساعدة سائق سيارة أجرة، الذي، والكلام في سرك، ارتضى المساعدة والتزام الصمت المطبق مقابل مئة فرنك، وهي كلفة لا أستطيع القول انها باهظة...

«في اليوم التالي يعثر على الجثة في الحديقة. وعندئذ أبإمكانك تخيل موقف القاتل؟ ومقدار القلق الذي يُلمّ به؟

«وفي مثل هذه الحال، ألا يكون معرّضاً، في غمرة ارتباكه لارتكاب هفوة ما؟

«ومن جهتي أدفــع حرصي وتحــوّطي الى حدِّ اخفــاء هويتي الحقيقية عن الشرطة المحلية. إذ كان علي أن أتحرّك بأي إجراء علني.

«كنتُ في الغيــه مولان. والأرجــح أن القاتل كان هناك أيضاً. والحال أن لديّ لائحة بزبائن تلك الليلة، فأتحرّى بشأنهم جميعاً، بدءاً بالشابين اللذين أظهرا قدراً من العصبية والارتباك.

«عدد المشتبه بهم قليل جداً. جان شابو، رينه دلفوس، جينارو، أديل وفيكتور...

«وفي أسوأ احتمال يضاف اليهم أحد عازفي الفرقة الموسيقية والنادل الآخر، جوزيف. ولكن أفضل في البداية أن أحسم الشك بشأن الشابين...

«وحين أصبحتُ على وشك الفراغ منهما تدخلت أنت! اعتقال شابو! وفرار دلفوس! والصحف التي تعلن أن الجريمة وقعت في الغيه مولان!».

زفر ميغريه زفرة عميقة وبدّل من وضعية ساقيه.

ـ «لوهلةٍ شعرتُ بأنني خدعت! لا حرج من الاقرار بذلك! زعم شابو انه«رأى الجثة في الملهى بعد ربع ساعة من الاقفال...».

ـ «لكنّه رأى الجثة!» أجاب الكوميسير دلفيني.

ـ «أرجو المعذرة! لقد لمح على نحو غائم وعلى ضوء عودِ ثقاب لم يشتعل إلّا لبضع ثوان، جسماً ممدّداً على الأرض. والحقيقة أن دلفوس هو الذي يزعم أنه رأى جثة... وأن احدى العينين كانت جاحظة والأخرى مغمضة... ولا تنسَ أنهما كانا قد خرجا لتوهما

من القبو حيث مكثا طويلاً بلا حراك وخائفين، وأن تلك كانت أول عملية سطو يرتكبانها...

«لقد استغل دلفوس صديقه وأقنعه بالاشتراك معه. ثم يكون دلفوس أيضاً أول من ينهار عند رؤيته الجثة.

«إنه عصبي المزاج ومريض وسيىء الأخلاق! أي بكلام آخر، انه صبيّ ذو خيال واسع!

«لم يلمس الجثة! لم يقترب منها! ولم يشعل عودَ ثقابٍ آخر! بل هرعا معاً الى الخارج دون أن يفتحا صندوق الملهى...

«ولذلك نصحتك بأن تسعى لمعرفة ما الذي دفع غرافوبولوس الى العودة الى الغيه مولان بعد أن تظاهر بمغادرته...

«لسنا حيال جريمة عاطفية، أو جريمة مجّانية أو بقصد السرقة العادية. إنها بالضبط من نوع القضايا التي لا تتوصّل الشرطة، في معظم الأحيان، الى كشفها، لأنها، أي الشرطة، تجد نفسها حيال أناسٍ على قدرٍ كبير من الذكاء والتنظيم!

«ولهذا السبب طلبت اليك أن تعتقلني. للمزيد من خلط الأوراق! لكي ندفع الجناة الى الاعتقاد بأنهم نجوا بفعلتهم، وبأن التحقيق يتخذُ منحىً خاطئاً!

«وبهذه الطريقة قد يرتكبون هفوةً ما...».

كان السيد دلفيني لا يزال حائراً في أمره. ومكث يرمق ميغريه بنظراتٍ لا تخلو من اللوم الشديد فيما اكتسى وجهه سحنةً مثيرةً للضحك فقهقه مخاطبه ضاحكاً وقال له بنبرة تودّد:

ـ «هيّا! لا تغضب مني!... لقد تلاعبتُ قليلاً، أعترف! لم أطلعك مباشرةً على كلّ ما اجتمع لدي من معطيات!... أو الأحرى لم أخفِ عنك إلاّ أمراً وحيداً: قصة حقيبة القنّب.. وفي المقابل أنت تملك عنصراً مهمّاً في مجريات التحقيق لم يتوافر لدي...».

ـ «ومـا هـو؟».

ـ «ربما كان الأهمّ في الوقت الحالي. حتّى أن الهدف من اطلاعك على كلّ ما اعرفه هو الحصولُ منك على هذا العنصر الناقص. لقد عثر على الحقيبة في حديقة الحيوانات، ولم يعثر في ثياب المجني عليه إلاّ على بطاقة زيارة باسمه لا ذكر فيها للعنوان. ومع ذلك، بعد ظهر اليوم نفسه، قصدت الغيه مولان، ولكن قبل أن تذهب الى هناك كنت تعلم أن شابو ودلفوس تواريا عند درج القبو. من أخبرك؟».

ابتسم السيّد دلفيني. فقد حان دوره للتفاخر. وبدل أن يجيب على الفور، أشعل غليونه متباطئاً ونقر الرماد بطرفِ سبّابته.

ـ «هذا أمر طبيعي، فلدي عدد من المرشدين...» قال في البداية.

ثم سكت بعض الوقت، لا بل انهمـك بنقل بعض الأوراق من طرفِ المكتب الى طرفه الآخر.

ـ «أحسب أنكم، في شرطة باريس، تستخدمون أساليب مماثلة، من حيث المبـدأ كلّ أصحـاب المـلاهي الليلية يعملون لحسابي كمرشدين. وفي مقابل خدماتهم نتغاضى عن بعض المخالفات التي يرتكبونها...».

ـ «هذا يعني أن جينارو...؟».

ـ «بالضبـط!».

ـ «وهو الذي عثر على رماد السجائر عند درج القبو؟».

ـ «فيكتور هو الذي أطلعه على هذا الأمر فطلب إليّ أن أعاين الأثر بنفسي...».

كان ميغريه يزداد عبوساً كلّما ازداد زميله زهواً..

ـ «عليك الإقرار بأن الأمور جرت بسرعة» أردف دلفيني قائلاً.

وتمّ اعتقال شابـو. ولولا تدخل السيّد دلفوس لكانا لا يزالان في السجن. فإذا ثبت أنهما لم يقتلا الرجل، وهذا لم يثبت بعد، إلّا أن هذا لا يلغي حقيقة أنهما حاولا سرقة الملهى...».

ونظر الى محدّثه وبدأ أنه يتمالك ابتسامة سخرية.

ـ «يبدو أن الأمر قد سبّب لك بعض الضيق...».

ـ «إنني أحسب أنّ ما تقوله لا يُعين على حلحلة الأمور!».

ـ «ما الذي لا يعين على الحلحلة؟».

ـ «سلوك جينارو».

ـ «إذاً اعترف انك تعتبره القاتل...»

ـ «شأنه شأن الآخرين لا أكثر. هذا بالإضافة الى أن سلوكه هذا لا يثبت شيئاً. فأقصى ما يمكن أن يدل عليه ذلك هو انه رجل قوي جداً».

ـ «أتريد البقاء في السجن؟»

كان ميغريه يلهو بعلبة الثقاب. ولم يتعجّل الإجابة. وعندما تكلم بدا كأنه يخاطب نفسه.

ـ «لقد جاء غرافوبولوس الى لييج ليقتل أحداً ما أو ليتعرّض للقتل...».

- «لم تثبت صحة هذه الفرضيّة بعد!».

ثمّ زعق ميغريه مغيظاً

- «تبّاً لهذين الشابين!...».

- «مَن تقصـد؟».

- «أقصد الشابين اللذين أفسدا الأمور! إلّا إذا...».

- «إلّا إذا ..؟».

- «لا، لا شيء!».

ثمّ نهض حانقـاً وراح يذرع أرض الغـرفة جيئةً وذهاباً فيما ارتفعت في أجـوائهـا سـحب الدخان الذي كان ينبعث كثيفاً من غليوني الزميلين.

- «لو أن الجثة بقيت في غرفة الفندق لكان في استطاعة رجال الأدلّة الجنائية أن يعثروا، ربما، على...» شرع السيّد دلفيني يقول.

فرمقه ميغريه بنظرات كاسرة.

فالحقيقـة أن مزاج كلٍّ منهما كان أسوأ من مزاج الآخر مما أفسد سوية العلاقة بينهما. فلأقلّ تلميح كان أحدهما مُستعداً لردّ بما يوازي التلميح من القسوة؛ إذ أصر كلٌّ منهما على جعل الآخر مسؤولاً عن فشل التحقيق.

- «أما زال لديك بعض التبغ؟»

وكانت نبرة ميغريه في سؤاله أشبه بعبارة من يقول.

- «أنت مجرّد أحمق!»

وتناول كيس التبغ من يد زميله وحشا غليونه.

ـ «هيه! أنت! لا تضعه في جيبك، أرجوك...».

وفجأة كأن هدنة قد اعلنت بينهما. إذ لم يتطلب الموقف أكثر من هذه الدعابة. فنظر ميغريه الى الكيس أولاً ثم الى محدِّثه ذي الشاربين الأصهبين، وحاول عبثاً أن يكتم ابتسامة غالبته، ثمّ هزّ كتفيه.

وابتسم السيد دلفيني أيضاً. ولم يحتفظ من تقطيب سحنته إلاّ ما تستدعيه شكليات العلاقة الرسمية.

وكان البلجيكي أوّل من بادر الى السؤال بصوتٍ أراده هادئاً كأنّه يقرّ بحرجه:

ـ «ماذا سنفعل؟».

ـ «كل ما أعرفه هو أنّ غرافوبولوس قد قُتل!».

ـ «في غرفته في الفندق!».

وكانت تلك آخر تلميحات المناظرة بينهما!».

ـ «في غرفته، بلى! والقاتل قد يكون جينارو أو فيكتور أو أديل أو أحد هذين الشابين! فهم جميعهم لم يتقدّموا بأي حجة مقنعة لرفع التهمة. إذ يزعم جينارو وفيكتور أنهما افترقا عند ناصية شارع هوت سوفينيير وأنّ كلاً منهما عاد الى منزله. وتؤكد أديل أنها أوت الى الفراش بمفردها! أما شابو ودلفوس فقد أكلا بلح البحر والبطاطا المقليّة...».

ـ «وفي تلك الأثناء، كنت تقوم بجولةٍ على الملاهي الليلية!».

ـ «أما أنت فكنتَ مستغرقاً في النوم!».

وكانت نبرته تنمّ عن رغبةٍ في المزاح.

ـ «تشير الوقائع، غمغم ميغريه قائلاً، إلى أن غرافوبولوس مكث في الغيه مولان بعد الإقفال ليسرق منه شيئاً أو ليقتل أحداً. وعندما سمع جلبة الشابين تظاهر بأنه جثة هامدة دون أن يدرك أنه سيصبح جثة هامدة بالفعل في غضون ساعة واحدة...».

سُمِعَ طرقٌ على الباب الذي فُتِحَ بسرعة. ودخل أحد المفتشين وقال:

ـ «انه السيّد شابو الذي يرغبُ في التحدّث اليك. ويسأل إذا كان هذا الأمر لا يسبب لك ازعاجاً...».

فتبادل ميغريه ودلفيني نظرات عاجلة كأنما للتشاور

ـ «دعه يدخل!».

كان المحاسبُ منفعلاً، ولا يدري كيف يحمل قبّعته المستديرة بين يديه، ثمّ تردّد قليلاً حين رأى ميغريه برفقةِ الكوميسير دلفيني.

ـ «أرجو المعذرة إذا...

ـ «ألديك ما تقوله؟».

كان التوقيت غير ملائم إذ لا يتسع الموقف للكثير من اللياقات.

ـ «أقصد... أرجو منك المعذرة... أردت فقط أن أعبّر لك عن امتناني...».

ـ«هل وصل ابنك الى البيت؟».

ـ «منذ ساعة تقريباً... وقال لي...».

ـ «مـاذا؟».

كان المـوقف مُضحكـاً ومؤثراً في وقتٍ معاً. وكان السيّد شابو يحاول جاهداً أن يستعيد رباطة جأشه. فهو بزيارته هذه انما أراد أن يعبّر عن امتنانه الصادق ولكنَّ الأسئلة الفظة التي طالعه بها الكـوميســير أنستـه العبـارات التي اختارها وحفظها للمناسبة. عبارات عاطفية ومؤثرة أجهضتها ظروف اللقاء غير الملائمة.

ـ «قـال لي... أقصد أنني أودّ أن أعبر عن امتناني للمعاملة الحسنة التي لقيها... ففي أعماق شخصيّته، ليس فتىً رديئاً كما يبدو... ولكن عشرة السوء وبعض نقاط الضعف في طباعه... لقد أقسم... والدتـه طريحـة الفراش وأقسم لها... أعِدُك يا سيدي الكوميسير أنه من الآن فصاعداً لن... إنه بريء، أليس كذلك؟».

كان صوت المحاسب قد أصبح متهدّجاً. إلّا أنه بذلَ ما في وسعه كيما يحافظ على هدوئه ورصانته.

ـ «إنه ابني الوحيد وأود أن... ربما كنتُ ضعيفاً بعض الشيء...».

ـ «كنت ضعيفاً جداً، بلى!»

وفجأة ما عاد السيّد شابو متمالكاً نفسه. فأشاح ميغريه بوجهه لأنّه أحسّ بأن هذا الرجل الأربعيني الهزيل البنية، سيجهش بالبكاء.

ـ «أعِدُك، أنه في المستقبل...».

وحين استعصى عليه الكلام قال متلعثماً:

ـ «أوتعتقد أنه ينبغي أن أوجه رسالة شكر الى قاضي التحقيق؟».

ـ «إن شئت! بالطبع! قال السيّد دلفيني وهو يقتاده نحو الباب. إنها فكرة ممتازة!».

ولمّ القبعة المستديرة عن الأرض ووضعها بين يدي صاحبها الذي مشى القهقرى إلى أن وصل الى الباب.

ـ «إن دلفوس الأب لن يفكر من جهته في التعبير عن امتنانه لنا! قال الكوميسير دلفيني بعد أن أغلق الباب وراء الرجل. فهو يتناول طعام العشاء الى مائدة الحاكم خلال عطلة الأسبوع، كما انه صديق حميم لمستشار الملك... هيّا...!».

كان لفظ «هيّا» هذه، ينمّ عن مقدار ضيقه وتقززه اللذين عبّر عنهما أيضاً بحركته العصبيّة عندما راح يجمع الأوراق المبعثرة على طاولة المكتب.

ـ «ماذا نفعل الآن؟».

في تلك الساعة، كانت أديل لا تزال نائمة في غرفتها الصغيرة غير المرتبة والعابقة برائحة الرطوبة والطبخ. أما في الغيه مولان فكان الوقتُ الذي يعمد فيه كلّ من فيكتور وجوزيف الى مسح رخام الطاولات بتكاسل ظاهر، وإلى غسل الأكواب ومسحها.

ـ «سيّدي الكوميسير انه محرّر صحيفة «غازيت دو لييج» الذي وعدته بـ...».

ـ «دعه ينتظر!».

وكان ميغريه قد انتحى ركناً وبدا معتكر المزاج قليلاً.

ـ «ما هو مؤكد هو أن غرافوبولوس ميت!» قال السيّد دلفيني فجأة.

ـ «يا لها من فكرة!» أجاب ميغريه.

فرمقه الآخر ظنّاً منه أنها احدى دعاباته الهازئة.

وتابع ميغريه قائلاً:

ـ «أجل! وهو أفضل ما في المستطاع. كم عدد مفتشي الخدمة الآن؟».

ـ «لدينا مفتشان أو ثلاثة. لماذا؟».

ـ «وهل يمكن اقفال باب هذا المكتب بالمفتاح؟».

ـ «بالطبـع!».

ـ «أحسب أنّك تثق بمعاونيك من المفتشين أكثر ممّا تثق بحرّاس السجن؟».

كان السيّد دلفيني حائراً، لا يفهم شيئاً.

ـ «إذاً... أعـطني مسـدسـك... ولا تَخَف.. .سأطلق النار... وستغادر الغرفة بعد قليل لتقول إنّ الرجلَ ذا المنكبين العريضين قد انتحر، وانتحاره بمثابة اعتراف بالجريمة، وان التحقيق قد انتهى وحفظت القضية...».

ـ «أتريـد؟...».

ـ «انتبه.. سأطلق رصاصة... المهمّ، إياك أن تسمح لأحد منهم بالدخول الى هذه الغرفة... أيمكن استخدام النافذة للخروج من هنا عند الحاجة؟».

ـ «ولكن لماذا تفعل كلّ هذا؟».

ـ «إنها فكرة راودتني... مفهوم؟...».

وأطلق ميغريه رصاصة في الهواء بعد أن جلسَ على كنبةٍ وضِعَت بحيث لا يُرى من الباب سوى ظهرها. ولم يفكّر حتى بانتزاع غليونه من فمه. ولكنه مجرّد تفصيل لا أهمية له. وما إن هرع العاملون في المكاتب المجاورة حتى اعترضهم السيد دلفيني وغمغم قائلاً دون اقتناع: «إنه أمر بسيط... لقد انتحر الجاني... بعد أن أدلى باعترافاته...».

وخرج من المكتب ثمّ عمد الى اقفال الباب بالمفتاح فيما كان ميغريه يمرّر أصابع يده بين خصلات شعره ويبتسمُ مغتبطاً.

ـ «أديل... جينارو.. فيكتور... دلفوس... شابو...» كان يردّد كمن يتلو درساً عن ظهر قلب.

في المكتب الفسيح، كان مراسل صحيفة «غازيت دو لييج» يدوّن بعض الملاحظات.

ـ «أتقول انه اعترف بكل شيء؟... ولم يتمّ الكشف عن هويته؟... عظيم!. . أبإمكاني استخدام الهاتف؟... هناك طبعة البورصة في غضون ساعة واحدة...».

ـ «قُل إذاً! صرخ أحد المفتشين إذ وقف بالباب متفاخراً. لقد وصلت الغلايين!... متى ستأتي لاختيار بعضها!...»

إلّا أن الكوميسير دلفيني مكثَ يمسّد شاربيه وأجاب بفتور:

ـ «فيمـا بعـد...».

- «للمناسبة! لقد تبيّن أن ثمن الغليون أقلّ بفرنكين مما حسبتُ».

- «حقـاً!».

ولم يستـطع إلاّ أن يكشف عن موضوع انهماكه الفعلي حين غمغم قائلاً في سّره.

- «تبـاً لـه وللمافيا!...».


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- ١٠ -

رجلان في العتمة



ـ «هل أنت واثق من جماعتك؟».

ـ «لن يرتـاب أحـدٌ، بأية حال، انهم من رجال الشرطة، وذلك لسبب بسيط وهو أنهم ليسوا من رجال الشرطة. لقد أوفدت صهري الى بار الغيه مولان. انه من سكان «سبا» وجاء لتمضية يومين في لييج. أمّا جابي الضرائب فقد كلفته بمراقبة أديل. أما الآخرون فبعيدون عن الأنظار وبعضهم آثر التنكر...».

كانت الليلة باردة بعض الشيء والمطر المنهمر رذاذاً يجعل الأسفلت زلقاً. زرّر ميغريه معطفه الأسود جيّداً حتى الياقة وتلفّع بوشاح غطّى به نصف وجهه.

هذا بالإضافة الى أنه لم يغامر في التوغل خارج الزقاق المعتم الضيق الذي تبدو على طرفه البعيد يافطة الغيه مولان المضيئة.

أما الكوميسير دلفيني الذي لم تنشر الصحف نبأ موته، فلم يكن مجبراً على اتخاذ مثل هذه الاحتياطات. فلم يرتدِ معطفاً مشمّعاً وعند هطولِ المطر راح يُطلق عبارات غامضة.

كانت نوبة المراقبة قد بدأت منذ الثامنة والنصف. أي قبل أن يفتح الملهى أبوابه. ثمّ وصل الجميع تباعاً. كان فيكتور أوّل

الوافـدين ثمّ تبعه جوزيف ثمّ صاحب الملهى. وعندما وصل هذا الأخـير أضـاء اليـافـطة الكهربائية بنفسه وفي تلك اللحظة جاء العازفون من تقاطع شارع بون دافروي.

عند التاسعة تماماً تناهت موسيقى الجاز الخافتة وباشر البوّاب عمله بوقوفه عند العتبة وهو يعدّ قطع النقود المعدنية التي كانت في جيبه.

بعد ذلك بدقائق معدودة دخل صهر دلفيني الى الملهى، وسرعان ما تبعه جابي الضرائب.

وكان على الكوميسير أن يلخّص الوضع الاستراتيجي على النحو التالي:

ـ «بـالإضافة الى هذين وإلى الشرطيين اللذين يتوليان مراقبة الباب الخلفي، هناك من يراقب منزل أديل، في شارع لا ريجانس، وآخر أمام منزل آل دلفوس، وآخر أمام منزل آل شابو. كذلك الأمر أوفدنا من يراقب الغرفة التي كان يقيم فيها غرافوبولوس في فندق «أوتيل مودرن».

لم يقل ميغريه شيئاً. فتلك كانت خطته لقد أعلنت الصحف عن انتحار قاتل غرافوبولوس. ولـمّحت الى أن التحقيق قد استكمل وأن القضيّة أصبحت قضية قتل عاديّة.

ـ «والآن، إمّا أن ننهي القضيّة هذه الليلة بالذات، قال مخاطباً زميله، وإما أن نراوحَ في التلمس والغموض لأشهر طويلة».

وراح يذرع المكان جيئةً وذهاباً مدخناً غليونه بنفثات صغيرة

عاجلة، غير مكترث، لا يستجيب لرغبة زميله في مخاطبته إلّا بعبارات غامضة أشبه بالزئير.

أمّا السيد دلفيني الذي لا يتمتع بهذا القدر من الهدوء، فكان يشعر بالرغبة في الكلام، في تبادل أطراف الحديث، ريثما ينقضي الوقت.

ـ «أتعتقد أن شيئاً ما سيحدث، وكيف؟».

إلّا أن الآخر اكتفى بأن حدّجه بنظراتٍ منذهلة كأنه يقول:

ـ «ما الذي تجنيه من الثرثرة؟».

وكانت الساعة تقارب العاشرة حين وصلت أديل، يتبعها من بعد خيال رجل الأمن المكلف بتعقبها. وعندما مرّ هذا الأخير بمحاذاة رئيسه، قال هامساً:

ـ «لا شيء يذكر...».

وواصل تجواله في الجوار. كان شارع «بون دافروي» يبدو من بعيد باذخ الإضاءة تعبره الحافلات المضاءة كل ثلاث دقائق تقريباً وكذلك عشرات المارّة على الرغم من هطولِ الأمطار.

إنها نزهة أهل لييج التقليديّة. إذا ازدحم الشارع الرئيسي بحشدٍ من المارة: عائلات بجميع أفرادها، فتيات متخاصرات أو يمسكن أيدي بعضهن البعض، زمر من الفتيات والشبان تتفرّس في المتنزهات وحفنة من التجار الأنيقي المظهر تسير بخطى متمهّلة وقد تصلّبت قاماتهم كأنهم يرتدون ثياباً من ذهب.

وفي الأزقّة الصغيرة، الفرعية علا صخب الملاهي الليلية التي لا

تحظى بالسمعة الطيبة ومن بينها الغيه مولان. على الجدران، تعبرُ ظلال وأخيلة كثيرة. أحياناً تنشق امرأة في بقعة ضوء ثمّ لا تلبث أن تتوارى في العتمة إذ تقف لانتظار أحدٍ ما.

تبادل عبارات قصيرة. ثمّ بضع خطوات في اتجاه الفندق الذي يُشار الى مدخله بكرةٍ من الزجاج المضاء.

- «أتأمل حقاً في حدوث شيء ما؟».

اكتفى ميغريه بأن هزّ كتفيه. وبدت نظراته كابيةً صفيقة كأنها مجرّدة من أي ذكاء.

- «بأية حال، لا أعتقد أن شابو سيغادر منزله هذه الليلة، نظراً لحالة والدته الصحية!».

كان الكوميسير دلفيني مصّراً على رفض هذا الصمت العنيد. فنظر الى غليونه الذي لم يغلّفه بعد.

- «للمناسبة، سأعطيك غداً أحد هذه الغلايين، وهكذا ستحمل تذكاراً من ليبيج...».

دخل زبونان الى الغيه مولان.

- «خيّاط يقيم في شارع هور شاتو وعامل ميكانيكي! قال دلفيني معرّفاً. انهما من روّاد الملهى المعتادين! من محبّي العيش، كما يُقالُ في هذه الناحية...».

إلّا أن شخصاً ما خرج من الملهى وكان عليهما أن يدقّقا النظر فيه للتعرّف اليه. كان ذلك فيكتور الذي استبدل ملابس العمل بطقمٍ رسميّ ومشمّع. وكان يسيرُ بسرعة فلم يلبث أن تعقّبه أحد المفتشين.

- «أرأيت! أرأيت!...» همس دلفيني.

فزفر ميغريه زفرة أطلقت رئتيه من صدره ورمق رفيقه بنظراتٍ قاتلة. ألا يستطيع هذا البلجيكي أن يصمت ولو لدقائق معدودة؟..

كان ميغريه واقفاً وقد دسّ يديه في جيبي معطفه. ودون أن يُبدي اهتماماً ظاهراً بما يجري، كانت عيناه تلحظان بدقّة أي تبدّل في المشهدِ.

وكان أول من لمح رنيه دلفوس، بعنقه النحيل، وقامته الهزيلة كقامة مراهقٍ سيىء النمو، وقد سلك الشارع الضيق متردداً، ثم اجتازه مرتين من رصيف الى رصيف قبل أن يتجه مباشرةً الى بوابة الغيه مولان.

- «أرأيت! أرأيت!» ردّد السيّد دلفيني مذهولاً.

- «أجـل!».

- «مـاذا تقصـد؟».

- «لا شيء!».

وإذا كان ميغـريـه لا يريد أن يقول شيئاً فلأن رؤية دلفوس افقدته شيئاً من هدوئه المعتاد. فتقدم بشيء من الحذر لأنّ مصباحاً أضـاء أعلى وجهه. لم يستغرقه الأمر طويلاً. ذلك أن دلفوس لم يمكث أكثـر من عشر دقـائق في الداخل. وعندما غادر كان يحث الخطى سالكاً في اتجاه شارع بون دافروي دون تردّد.

بعد ذلك بثوان معدودة غادر صهر دلفيني الملهى بدوره، وراح يبحث بعينيه عن شخص ما. فنادوا عليه بصفير خافت.

- «إذاً؟».

ـ «لقد جلس دلفوس الى طاولة الراقصة ..».

ـ «ثـمّ؟».

ـ «ذهبـا معاً الى حجرة المغاسل، وبعد ذلك غادر بسرعة فيما عادت الراقصة الى مكانها...».

ـ «هل كانت أديل تحمل حقيبتها بيديها؟».

ـ «أجل!... حقيبة صغيرة من المخمل الأسود...»

ـ «هيّا بنا!...» قال ميغريه.

وسار بخطواتٍ أعيت رفاقه من اللحاق به.

ـ «ماذا أفعل الآن؟» سأل الصهر

فقال الكوميسير للسيد دلفيني:

ـ «ستعود أدراجك بالطبع!».

في شارع بون دافـروي، لم يجـدوا أثـراً للشـاب الذي كان يتقدمهم بمئة متر على الأقل، ذلك أن حشد المارّة كان كبيراً. ولكن حين وصلوا الى تقـاطع شـارع لا ريجـانس لمحوا خيال شخصٍ يركضُ بمحاذاة البيوت .

ـ «إنه يقصد منزلها، أجل! أوضح ميغريه. لقد ذهب اليها ليأخذ منها المفتاح...».

ـ «وهـذا يعنـي...؟».

دخل دلفوس الى العمارة وأغلق باب المدخل خلفه، وهرع يصعد الدرج.

ـ «ماذا نفعل الآن؟».

ـ «مهلاً... أين يقف الشرطي المكلّف بالمراقبة».

وكان هذا الأخير يقترب منهما حائراً من أمره، لا يعرف بالضبط إذا كان عليه أن يخاطب رئيسه أم يتجاهل وجوده طلباً للسريّة

ـ «تعال يا جيرار! ماذا هناك؟.. »

ـ «منذ خمس دقائق دخل أحدهم الى المنزل. لقد رأيت بصيص ضوء في الغرفة كأن أحداً ما يهتدي بضوء مصباح جيب. .»

ـ «هيـا بنـا!» قال ميغريه.

ـ «هـل ندخـل؟».

ـ «بحقّ السمـاء!».

كان يكفي لفتـح البوابة المشتركة لكافة المستأجرين أن يدير أحدهم قبضة المغلاق، ذلك أن العمارات البلجيكية تفتقد الى البوّابين.

لم يكن الدرج مضاءً. وما من ضوء يتسّرب من غرفة أديل.

ولكن ما إن لمس ميغريه الباب حتى فُتح على الفور، وتناهت الى مسامعه جلبة مكتومة كأنها وقع شجار بين رجلين يتصارعان فوق الأرضيّة.

سارعَ السيد دلفيني الى سحب مسدسه، فيما تلمس ميغريه الجدار لجهة اليسار فعثر على مفتاح الضوء وأداره.

وما إن سطع الضوء حتى طالعهما مشهدُ مضحكٌ مبكٍ.

كان الرجـلان منهمكـين في قتـالهما. إلاّ أن الضوءَ المفاجىء والجلبة جعلاهما يمكثان بلا حراك كما كانا، يتشبّث واحدهما بعنق

الآخر. يدٌ تقبض على عنق. وشعر رمادي مشعّث.

ـ «امكثا بلا حراك! أمر السيد دلفيني! ارفعا أيديكما!».

أغلق الباب خلفه دون أن يترك مسدسه. وعندئذٍ تنفس ميغريه الصعداء ونزع لفحته عن وجهه وفكّ أزرار معطفه، واستراح أخيراً كأنّه كان يضيق ذرعاً بحرارة التخفي.

ـ «هيّا بسرعة!... ارفعا أيديكما!...».

فتعثر دلفوس لأنه أراد أن ينهض ولكن ساقه كانت مشبوكة بساقِ فيكتور.

*

*   *

بدا من نظرة السيّد دلفيني أنه حائر في أمره يطلب النصح بشأن ما سيفعله. وكان دلفوس ونادل الملهى قد نهضا عن الأرض ووقفا شاحبين، مشعثي الشعر مدعوكي الثياب.

ومن بينهما كان الشاب هو الأكثر انفعالاً وشحوباً وبدا كأنه لا يدرك جيّداً حقيقة الموقف الذي زجّ فيه. لا بل راح يرمق فيكتور بكثير من الذهول كأنه لم يتوقع أن يكون هو خصمه.

فمن كان إذاً خصمه العتيد؟

ـ «قفا بلا حراك، يا صغيري! قال ميغريه أخيراً بعد أن لزم الصمت طويلاً. هل الباب مقفل أيها الكوميسير؟».

ودنا منه وهمس له ببعض العبارات. فاقترب دلفيني من النافذة وأشار بيده الى المفتش جيرار بالصعود ووافاه عند صحن الدرج.

ـ «ضع ما استطعت من الرجال حول الغيه مولان. وليحرصوا على منع أيٍّ من رواده من الخروج! وفي المقابل لا تعترضوا سبيل الداخلين اليه على الإطلاق...».

ثمّ عاد الى الغرفة حيث رأى فوق السرير شرشفاً أقرب الى الكريما المخفوقة.

كان فيكتور صامتاً لا يحرّك ساكناً. وبدت سحنته مطابقة لصورة ندل المقاهي كما يرسمها فنانو الكاريكاتور: شعرٌ خفيف ونادر يملِّس فوق صلعةٍ ملساء، ولكنّه في تلك اللحظة بدا مشعثاً في حالة فوضى، وملامح مفلطحة وعينان كبيرتان غمصاوان.

كان يقف جانبياً كأنه يحاول أن يخفي مظهره عن أعين الأخير، فيما شخصت عيناه وبدا كموارب يصعبُ التكهن به.

ـ «ليست هذه أوّل مرّة تتعرّض فيها للإعتقال!» قال له ميغريه بنبرةٍ واثقة.

كان واثقاً ممّا يقوله. لأنّ مثل هذه الأمور يمكن التكهّن بها من النظرة الأولى. فقد بدا الرجل وكأنّه يتوقع منذ وقتٍ بعيد أن تعترضه الشرطة في يوم ما، وانه اعتاد مثل هذا النوع من المواقف.

ـ «لا أدرك ما الذي تقصده بالضبط. لقد أوفدتني أديل لأحضر لها شيئاً ما...».

ـ «إصبع الحمرة، بلا ريب؟».

ـ «ولكني سمعت جلبة... ودخل عليّ شخص ما...».

ـ «فسارعت الى الانقضاض عليه! هذا يعني أنك كنت تبحث عن اصبع الحمرة في العتمة. حذار! إرفعا أيديكما، لو سمحت...».

فرفع الرجلان أذرعاً رخوة في اتجاه السقف. وكانت يدا دلفوس ترتعدان. وحاول أن يمسح وجهه بكمّه دون أن يجرؤ على خفض احدى ذراعيه.

ـ «وأنت بماذا كلفتك أديل أيضاً»

كانت أسنان الشاب تصطك فزعاً ولكنه لم يستطع أن يجيب بشيء.

ـ «راقبهما جيداً يا دلفيني؟».

وقام ميغريه بجولةٍ في أنحاء الحجرة حيث رأى على المنضدة قرب السرير بقايا قطعة لحم وفتات خبز وقنينة بيرة استهلك بعضها. انحنى مدققاً تحت السرير. وهزّ كتفيه ثمَّ فتح خزانة حيث لم يجد إلاّ فساتين وملابس داخلية وأحذية قديمة انتزعت كعوبها.

عندئذ انتبه الى وجود كرسي قرب الخزانة فاعتلاها واقفاً ومرّر كفه فوق سطحها وعثر على حقيبة جلدية سوداء.

ـ «هاك يا فيكتور! قال وهو يترجل عن الكرسي. أهذا هو اصبع الحمرة الذي تبحث عنه؟».

ـ «لم أفهم جيّداً ما الذي تقصده!».

ـ «أليس هذا ما جئتَ بحثاً عنه؟».

ـ «لم أر هذه الحقيبة من قبل»

ـ «أنت الخاسر! وأنت يا دلفوس؟».

ـ «أنا... أنا أقسم...».

نسي المسدّس المصوّب نحوه وارتمى فوق السرير وراح ينتحب كمن أصيب بنوبة مفاجئة.

- «إذاً، يا صغيري فيكتور، ألا تريد أن تقول شيئاً؟ أوتحرص أيضاً على كتمان سبب العراك مع هذا الفتى؟».

ورفع ميغريه عن المنضدة الطبق المتسخ والكوب والقنينة ووضع مكانها الحقيبة ثمّ فتحها.

- «إنها أوراق لا تعنينا بشيء يا دلفيني! ينبغي تسليم كل هذا للمكتب الثاني... انظر! إنها تصاميم البندقية الرشاشة انه مخطط لترميم حصنٍ ما... أوه! وأيضاً رسائل مكتوبة بالشيفرة ينبغي أن يتفحصها اخصائيون في هذا المجال...».

في القِدْر، فوق شبيكة السخان، كانت تحترق بقايا كراتٍ فحمية وفجأةً، وبحركةٍ مباغتة هرع فيكتور نحو المنضدة وأمسك بالأوراق.

ولا بدّ أن ميغريه كان يتوقّع حركته هذه، لأنه عمد، فيما مكث الكوميسير دلفيني متردداً في إطلاق النار، الى توجيه لكمة حديدية الى وجه النادل الذي ترنح دون أن يتسنى له رمي الوثائق في النار.

تبعثرت الأوراق. ووقف فيكتور يسند فكّه واضعاً كفيه على خده الذي احمرّ فجأة.

كل ذلك جرى بسرعـةٍ خاطفة، ومع ذلك كاد دلفوس أن ينتهز الفـرصة للهرب. ففي لمحِ البرق نهض عن السرير ومرّ من وراء السيد دلفيني حين تنبه اليه هذا الأخير فأوقفه على الفور.

- «والآن؟...» سأل ميغريه.

- «لن أقول شيئاً، زعق فيكتور مغيظاً.

- «وهل طلبتُ اليك أن تقول شيئاً؟».

- «لم أقتل غرافوبولوس...»

- «وبعـد؟».

- «أنت رجل فظ! محاميً...».

- «حسناً! حسناً! لقد عاجلت الى استشارة محامٍ.. منذ الآن!...».

كان الكوميسير دلفيني يراقب الفتى عن كثب وإذ تتبّع وجهة تحديقه، انتبه مرّة ثانية الى سطح الخزانة.

- «أعتقد أن هناك شيئاً آخر!» قال.

- «إنه أمرٌ محتمل!» أجاب ميغريه معتلياً الكرسي مجدّداً.

كان عليـه أن يمرّر كفّه متلمساً ولوقتٍ طويل. وأخيراً عثر على حافظة نقود من الجلدِ الأزرق وفتحها.

- «إنها محفظة غرافوبولوس! قال موضحاً. ثلاثون ورقة نقدية من فئة الألف فرنك... وأوراق أخرى... مهلاً! عنوان مدوّن على قصاصة ورق: غيه مولان، شارع بودور... وبخطٍّ مختلف: لا أحد ينام في المبنى...».

استغـرق ميغـريـه في تفحص محتـويـات المحفظة وغفل عن الآخرين. كان منصرفاً الى تتبع خيط أفكاره مدققاً في رسالة مكتوبة بالشيفرة، وراح يفك بعض إشاراتها.

- «واحد... إثنان... أحد عشر .. اثنا عشر!... كلمة من اثني عشر حرفاً... هذا يعني: غرافوبولوس .. إنه في الحقيبة...».

وقع خطوات على الدرج. ثمّ طرقات عصبية متتالية على الباب. فوجه المفتش جيرار الذي ينضح حماسة وتوتراً.

ـ «الفيه مولان محاصر. لن يخرج منه أحد. ولكن...».

ـ «إنه السيّد دلفوس. لقد وصل الى الملهى منذ دقائق وسأل عن ابنـه... وانفرد لبعض الوقت بأديل... أجل، لقد غادر الملهى... وحسبتُ أنه من الأفضل أن أدعه يغادر لأعمل على تعقبه... وعندما أدركت انـه قادم الى هنا... فضّلتُ أن أسبقه... مهلاً!... ها هو يصعد الدرج...».

وبالفعل سمعت جلبةُ تعثر في الخارج، ثمّ وقع أقدام عند صحن الدرج وبعد تلمس الأبواب، طرقات على الباب.

فتح ميغريه الباب بنفسه وانحنى مرحباً بالرجلِ ذي الشاربين الرماديين الذي رمقه بنظراتٍ متعالية.

ـ «هل ابني...؟».

وما لبث أن رآه في حالةٍ يُرثى لها، فأشار بيده وقال:

ـ «هيّا الى البيت!...».

وكاد الموقف يزداد تفاقماً. كان رينه يحدّق في الحضور بنظرات هلع ويتشبث بشرشف السرير فيما تصطك أسنانه وتحدثُ صوتاً مسموعاً.

ـ «مهلاً! قال ميغريه حسماً للموقف. هلاّ تفضلت بالجلوس يا سيّد دلفوس؟».

فأجال هذا الأخير بصره في أرجاء المكان متقززاً.

ـ «ألديك ما تقوله لي؟ مَن أنت؟...».

ـ «ليس مهمّاً من أكون! فالكوميسير دلفيني سيطلعك على كلّ

شيء في الوقت المناسب هل عاملت ابنك بقسوة حين عاد الى البيت؟».

ـ «لقد أمرته بأن يلزم غرفته ريثما أتخذ قراراً بشأنه».

ـ «وما طبيعة هذا القرار؟»

ـ «لا أدري بعد. ولكن الأرجح أنني سأتدبر أمر سفره الى الخارج لفترة تدريبيّة على أعمال المصارف أو الشركات التجاريّة. فقد آنَ له أن يتعلّم أمور العيش».

ـ «لا يا سيّد دلفوس....».

ـ «ماذا تقصد؟»

ـ «أقصد ببساطة أن الأوان قد فات. فقد عمد ابنك ليلة يوم الأربعاء. الخميس، إلى قتل السيد غرافوبولوس بهدف سرقته...».

وبحركة خاطفة صدّ ميغريه بيده مقبض العصا الذهبي الذي هوى في اتجاهه بغتةً. وأمسك بها ونترها بقوة ممّا أرغم حاملها على تركها مُطلقاً زفرةَ ألم. وعندئذ تفحصها بهدوء، ثم رمى بها أرضاً.

ـ «وأنا واثق تقريباً من أن هذه العصا هي الأداة التي استخدمت في ارتكاب الجريمة!».

كأنّ تشنجاً ما أرغم رينه على فتحِ شدقيه كأنّه يحاول الصراخ دون أن يصدر عنه صوت. كان عبارة عن كتلة من الأعصاب المشدودة، مجرّد كائن يثير الشفقة ويستبدّ به الذعر.

ـ «آمل أن توضح أقوالك! أجابه السيّد دلفوس. أما أنت يا عزيزي الكوميسير فأرجو أن تعلم علم اليقين أنني سأنقل الى صديقي المدّعي العام...».

التفت ميغريه نحو المفتش جيرار.

ـ «إذهب وأحضر أديل... استقل احدى السيّارات... وأحضر أيضاً جينارو...».

ـ «أعتقد أن...» شرع السيّد دلفيني يقول وقد اقترب من ميغريه.

ـ «أجل! أجل!...» بادره هذا الأخير قائلاً كأنّه يهدىء من روع طفلٍ ما.

وراح يتمشى. وتابع مشيه، جيئةً وذهاباً، طيلة الدقائق السبع التي يستغرقها تنفيذ أوامره.

ثمّ تناهى صوت محرّك سيارة. وقع أقدام على الدرج. وصوت جينارو يعلو احتجاجاً:

ـ «سيكون لكم شأن مع القنصل... انه أمر مستغرب...! تاجر يدفع الضرائب... في الوقت الذي يغصّ فيه محلّه بأكثر من خمسين زبوناً!...».

وعندما دخل راحت عيناه تبحثان عن فيكتور بنظراتِ استفسار.

وكان فيكتور رائعاً.

ـ «كلّنا في القدْر!» قال ببساطة.

أمّـا الراقصـة التي كانت شبه عارية في فستانها الذي يبرز مفـاتنها، فأجالت بصرها في أرجاء حجرتها ثمّ أطرقت مستسلمةً للأمر الواقع.

*

* *

- «فقط أجيبي عن سؤالي. هل طلب اليكِ غرافوبولوس خلال سهرتكما معاً، أن توافيه الى غرفته؟...».

- «لم أفعل!».

- «إذاً، طلب اليك أن تفعلي! وهذا يعني أنه قال لك إنه مقيم في «الأوتيل مودرن» في الغرفة رقم ١٨ ...».

فأطرقت

- «واستطاع شابو ودلفوس اللذان كانا يجلسان الى طاولة قريبة، أن يسمعا كلّ شيء. في أي ساعة وصل دلفوس الى هنا؟».

- «كنت لا أزال نائمة! ربّما عندَ الخامسة صباحاً...».

- «وماذا قال؟».

- «اقترح أن نرحل معاً... كان يريد أن يسافر الى أميركا على متن مركب... وقال لي إنّه ثري...».

- «هل رفضتِ؟.. ».

- «كنت نصف نائمة... وقلت له أن ينام... ولكن ليس هذا ما كان يريده... وعندئذ لاحظتُ أنه عصبي المزاج فسألته إذا ارتكب حماقة ما...».

- «وبماذا أجاب؟...».

- «رجاني أن أخبىء محفظة في غرفتي!».

- «فأشرتِ عليه بالخزانة، حيث كانت الحقيبة قد وضعت من قبل...».

فهزّت كتفيها مجدّداً وتنهّدت قائلة.

ـ «واأسفاه! إنها غلطتهم...».

ـ «إذاً هذا ما حدث بالفعل؟».

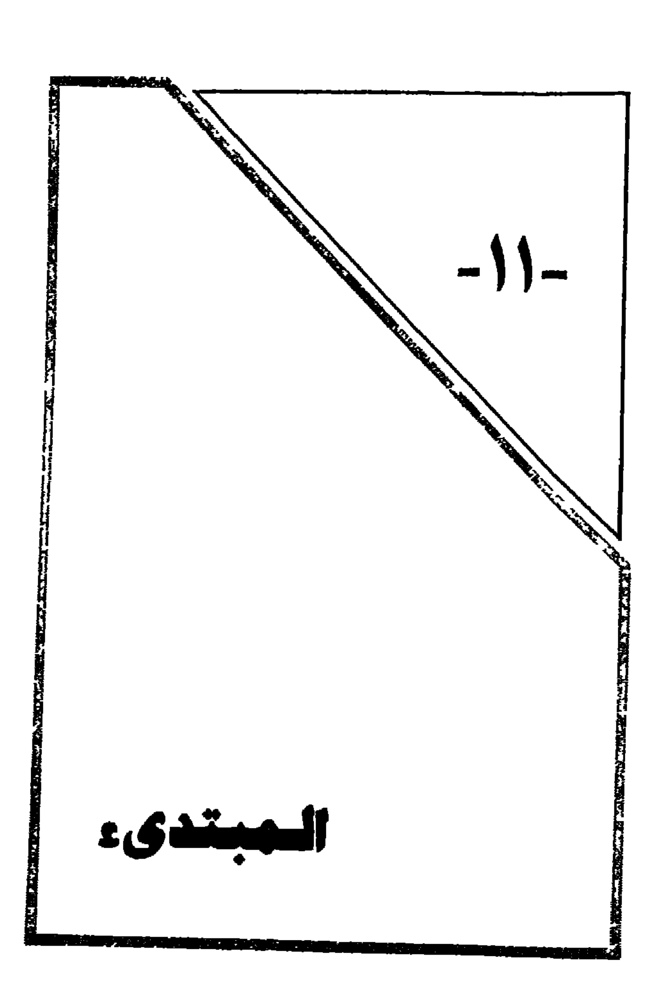
لا جواب. وراح السيد دلفوس يَسحَقُ الحضور بنظرة تحدٍّ.

ـ «يدفعني فضولي لأن أعرف...» شرع يقول.

ـ «ستعرف كل شيء بعد قليل يا سيد دلفوس. ولا أسألك إلاّ لحظة واحدة من الصبر...».

الصبر كي يتسنى له حشو غليونه!




-11-
المبتدىء



«لنتحدَّث أوّلاً عن إقامته في باريس! هناك يلجأ غرافوبولوس الى الشرطة طلباً لحمايته، وفي اليوم التالي يحاول تضليل المفتش المكلف بمراقبته. ولا بدّ أنك تذكر يا دلفيني ما قلته لك في السابق، أليس كذلك؟

«حكايات المافيا والجاسوسيّة... والحال أن هذه القضيّة هي قضيّة جاسوسية. غرافوبولوس رجلٌ ثري ومتبطل. تستهويه المغامرة كما تستهوي عدداً لا بأس به من هذا الطراز من الناس.

«خلال أسفاره يلتقي عميلاً سرّياً ما ويسرّ اليه أنه يرغب هو أيضاً في خوض حياة المفاجآت والغموض...

«عميل سّري' الكلمتان اللتان تدغدغان أحلام العديد من الحمقى!

«فهم يعتقدون أن مزاولة هذه المهنة تكمن في... ولكن دعنا من هذا الآن! المهمّ أنّ غرافوبولوس كان ملحاحاً في طلبه. ولا يحق للعميل الذي يخاطبه أن يرفض مثل هذا العرض الذي قد يكون مثمراً...

«وما يجهله عامّة الناس عادة أن الالتحاق بمثل هذه المهنة

يتطلب اختبارات تأهيلية... فالرجل ثري وعلى قدر من الذكاء. ويسافر كثيراً... ولكن قبل أي اعتبار آخر ينبغي التثبت من برودة أعصابه وقدرته على العمل في الخفاء وحفظ السّر...

«يكلّف بمهمة أولى. التوجه الى لييج بهدف سرقة وثائق من ملهى ليلي...

«إنها الوسيلة المثلى للتثبت من برودة أعصابه. المهمّة ملفّقة. فمن يأتي لسرقتهم ليسوا سوى عملاء ينتمون الى الجهاز نفسه، ومن شأنهم أن يعطوا الكلام الفصل في قدراتِ رجُلنا...

«والحال أن غرافوبولوس يشعر بالذعر! لقد تخيّل أن أعمال الجاسوسية تجري في وسطٍ مختلف تماماً! تخيّل انه سيرتاد القصور ويخالط السفراء وبطانة البلاطات الأوروبية المختلفة...

«لا يجرؤ على رفض المهمّة. غير أنه يلجأ الى الشرطة ويطلب مراقبته. ويحذّر رئيسه من أنه مراقب...

«ـ «هناك مفتش يتعقبني! أحسبُ في مثل هذه الحال انه لا ينبغي أن أذهب الى لييج...».

«ـ «عليك بالذهاب مهما كلّف الأمر!».

«وإذا به يتملكه الهلع! فيحاول الإفلات من المراقبة التي سعى إليها طوعاً فيحجز تذكرة طائرة الى لندن، ويستقل قطار برلين لينزل في محطة غييومان..

«الغيه مولان!... إنه المكان المقصود... غير انه يجهل تماماً أن صاحب المحلّ قد أُخطر بمجيئه وأنه أحد أفراد الشبكة وأن المهمة

كلّها ليست سوى اختبار تأهيل، وعلاوة على ذلك أن لا وجود لأي وثيقة في الملهى...

«تجلس راقصة الى طاولته... فيطلب اليها أن توافيه في آخر السهرة الى غرفته لأنّه، قبل كل شيء، رجل يبحث عن المتعة... وكما يحدث عادةً يضاعف الاحساس بالخطر من تأجّج شهوته... أخيراً، تدبّر أمر ليلته بحيث لا يمكث وحيداً!.. وعرفاناً منه لمتعة الليلة الموعودة يُعطيها، سلفاً، علبة سجائرة المذهبة التي تنتزع إعجابها...

«ويمكث هناك مُراقباً الناس من حوله. إنه لا يعرف شيئاً. أو الأحرى لا يعرف إلّا أمراً واحداً: أنه ينبغي أن يتدبر أمر بقائه في الملهى بعد الإقفال كيما يُتاح له أن يبحث عن الوثائق المطلوبة...

«أما جينارو الذي يعرف عنه كلّ شيء، فمكث يراقبه والابتسامة لا تفارق وجهه... وكذلك فيكتور، المعني هو أيضاً فبدا مجاملاً الى حد المبالغة في تقديمه الشمبانيا...

«أحد ما سمع، بمحض المصادفة، العنوان الذي أعطاه لأديل».

«ـ «أوتيل مودرن»... الغرفة ١٨...

«أما الآن فعلينا أن ننتقل الى حكاية أخرى!».

ونظر ميغريه الى السيّد دلفوس ولا أحد سواه.

«هلّا سمحت لي أن أتحدث عنك. أنت رجل ثري. ولك زوجة وو[illegible] وعشيقات. تحيا في الرغدِ والاستمتاع دون أن ترتاب للحظة أ[illegible] الصبي، المتوعك، العصبي المزاج، يحاول في الوسط الضيق الذ[illegible] يحيا في كنفه أن يقلدك.

«يرى المال يُبذّر كيفما اتفق من حوله. أما ما يناله، هو، منه رغم كثرته فانه لا يكفي في الوقت نفسه.

«منذ أعوام طويلة وهو يسرقك، لا بل ويسرق أخواله أيضاً!

«ينتهز فرصة غيابك ليستخدم سيّارتك. وهو أيضاً له عشيقات. أي انه باختصار، الولد الذي تنطبق عليه صفة «الابن المدلل الفاسد».

«لا! لا تعترض.. مهلاً...

«يحتاج الى صديق، إلى مَن يُسرّ اليه بكل شيء... فيستدرج شابو الى نمط عيشه. وذات يوم، يجدان أنهما مفلسان... وتراكمت عليهما الديون... فيصمّمان على السطو على صندوق الغيه، مولان ..

ويُصادف أن تكون الليلة الموعودة ليلة غرافوبولوس... يختبىء دلفوس وشابو عند درج القبو بعد أن تظاهرا بالمغادرة. فهل انطلت الحيلة على جينارو؟... لا داعي للخوض في هذا الأمر، ولكني أحسب أنه لم يغفل عن ذلك!

«فهو مثال العميل السّري المحترف. يُدير ملهىً ليلياً. ويسدّد الضرائب، كما أكد منذ قليل ويُشرف على شبكةٍ من العملاء المساعدين الذين يعملون لحسابه! ولكي يتحوّط لأي طارىء يَعمل كمرشد لحساب الشرطة..

«وهو يعلم جيداً أن غرافوبولوس سيختبىء في الملهى ومع ذلك يقفل الأبواب. ويغادر برفقة فيكتور. وفي اليوم التّالي لن يكون عليه إلاّ أن يرفع تقريراً الى رؤسائه حول سوء أو حسن تدبير اليوناني...

«كما ترون، يبدو الأمر شديد التعقيد... ويمكن أن نطلق على تلك الليلة اسم ليلة المخدوعين.

«لقد شرب غرافوبولوس الشمبانيا علّها تشدّ من عزائمه. وها هو بمفـرده في عتمـة الغيه مولان .. ولم يبق عليه إلّا أن يبحث عن الوثائق التي كلّف بسرقتها...

«ولكن ما إن أتى بحركة حتّى فتح باب. وأشعل عود ثقاب...

«أحسّ بالذعـر. ألم يكن مذعـوراً من قبـل؟... لا يجرؤ على المبادرة بالهجوم... ويؤثر أن يتظاهر بأنه ميت...

«ثم يرى خصميه... إنهما صبيّان مذعوران مثله تماماً، ولن يلبثا أن يتواريا..!».

مكث الجميع بلا حراك. كأنّ أنفاسهم قد حُبست. وبدت الوجوه مستغرقة مشدودة الملامح فيما تابع ميغريه بنبرةٍ هادئة

ـ «وإذ أصبح غرافوبولوس وحيداً في الملهى، راح يبحث بعناد عن الوثـائق العتيـدة. . أمـا شابو ودلفوس فيعملان على تهدئةِ روعيهما بتناول البطاطا المقلية وبلح البحر قبل أن يفترقا في الشـارع...

«ولكن دلفوس لم يستطع أن ينسى ما سمعه... أوتيل مودرن، الغرفة ١٨... والحال أن الرجل الغريب بدا ثرياً... أما هو فيعاني من حاجة مرضية الى المال... والدخول الى فندق أثناء الليل ليس أكثر من لعبة صبيان... ولا بدّ أن يكون مفتاح الغرفة معلقاً على اللوحة في ردهة الاستقبال... وبما أن غرافوبولوس قد مات! وبما انه لن يعود مطلقاً الى غرفته!...

«يصمّم على الذهاب. ولا يخطر للبوّاب النائمُ أن يسأله من يكون. فيصل الى الغرفة في الطبقة العليا ويفتش حقيبة المسافر...

«وفجأة وقع أقدام في الرواق... ويُفتح الباب...

«وإذ بغرافوبولوس، بلحمه وشحمه!... غرافوبولوس الذي من المفترض أن يكون ميتاً!...

«فاستبدّ الرعب بدلفوس الى حدٍّ دفعه للضرب، دون تفكير، وبأقصى ما لديه من قوّة، تحت جنح العتمة، ضربات متتالية بعصاه ذات المقبض الذهبي، عصا والده التي حملها معه في تلك الليلة: فقد اعتاد أحياناً أن يحملها معه... كان في حالةٍ من الهلع، أشبه بالمجنون... فيستولي على محفظة المجني عليه... ويغادر مُسرعاً...

«ربما توقف في الطريق، تحت أنوار مصباح بلدي، للتثبت من محتويات المحفظة .. فيرى أنها تحتوي على عشراتٍ الألوف من الفرنكات، فتستبد فكرة الرحيلِ برفقة أديل وهي الأمنية التي طالما راودته.

«حياة البذخ في بلدٍ أجنبي'... ورغد العيش برفقة امرأة'.. كرجل حقيقي'... كوالده!...

«لكن أديل كانت مستغرقة في النوم. وأديل لا تريد الرحيل برفقته... فيخبىء المحفظة في غرفتها لأنه يشعر بالخوف... ولا يرتاب للحظة بأن المكان الذي خبّأ فيه المحفظة كان يُستخدم لسنوات طويلة من قبل جينارو وفيكتور لإخفاء وثائق التجسس الحقيقية...

«ذلك أنها من أفراد الشبكة' كلّهم من أفراد الشبكة!

«لم يحتفظ دلفوس إلّا بالعملة البلجيكية فقد كانت المحفظة تحتوي على نحو ألفي فرنك بلجيكي... أما الباقي، أي العملة الفرنسية، فبدت له مربكة ومثيرة للشبهات»

«في اليوم التالي يقرأ الصحف... لقد عثر على الضحيّة، ضحيته، لا في غرفة الفندق، بل في حديقة الحيوانات.

«فاختلط الأمر عليه... وبات يحيا في حالة من التشوش والتوتر العصبي... ذهب للقاء شابو... ويستدرجه لمرافقته... ويتظاهر بسرقة خاله ليبرّر وجود الألفي فرنك التي يحملها..

«يجب أن يعثر على طريقة للتخلّص من هذا المال... ويكلّف شابو بأن يفعل ذلك... فهو جبان... لا بل أسوأ من جبان. فحالته مَرَضيّة من دون شك... ففي أعماق ذاته يلوم صديقه لأنّه لم يتورط في جرمه... ويسعى الى توريطه دون أن يجرؤ على اتخاذ خطوة محدّدة لتنفيذ رغباته الدفينة...

«ألم تكن تلك حاله على الدوام؟... إحساس بالحسد، وكراهية يصعب تفسيرها... شابو نظيف اليد، أو على الأقل كان كذلك... أما هو فتستبد به جملة من الاحتياجات المضطربة... وربّما كان هذا التفسير الفعلي للصداقة الغريبة التي جمعت بينهما ولحاجة دلفوس الدائمة لأن يكون برفقة صديقه.

«كان يقصده في منزله... إذ لطالما عجز عن البقاءِ وحيداً... لذلك سعى دائماً الى توريط الآخر بجنحه الصغيرة، السرقات العائلية الصغيرة التي لا يحاسب عليها القانون...

«شابو لا يعود من حجرة المغاسل... لقد تمّ اعتقاله... فلا يبحث

عنـه... بل يستـرسـل في احتساء الشراب... ويشعر بحاجةٍ لمن يشاركه الشراب... فهناك ما لا طاقة له على احتماله· الإحساس بالوحدة... فيثمل . ويرافق الراقصة الى غرفتها حيث ينام... وعند الصباح الباكر يصحو من سكرته ويعاوده الذعر... فلا بدّ أنه لمح المفتش الذي مكث في الشارع لمراقبته.

«هل كان يأمل في شيء ما؟.. لا، لا شيء!... وكلّ ما سيفعله منذ تلك اللحظة لن يكون إلّا في سياق التتمة المنطقية لما سبق .

«فهو يدرك تماماً، ولو عن طريق الحدس، انه لن يفلت من قبضة العدالة... وفي المقابل لا يجرؤ على تسليم نفسه...

«وليس لك، يا سيد دلفوس، إلّا أن تسأل الكوميسير دلفيني أين تبحث الشرطة وتنجح في مسعاها بنسبة تسع مرّات من عشر! ـ عن جناةٍ من هذا النوع!

«في الأمـاكن المشبـوهة... فمثل هؤلاء يحتاجون الى الشراب والصخب ورفقة النساء... ودلفوس الإبن لم يشذ عن القاعدة... فها هو يقصد حانةً ما بجوار المحطة... ويحاول أن يقنع الساقية بقضاء ليلة برفقته... وعندما ترفض طلبه، يذهب للبحث عن فتاة رصيف... ويبذّر المال... ويتباهى أمام الجميع بالمبالغ التي يملكها ويوزعها كيفما اتفق... كأنه أصيب بالجنون...

«وعندما يلقى القبض عليه، يُصرّ على الكذب، على نحو مَرَضيّ! يكذبُ عبثاً! يكذب حبّاً بالكذب، كما يفعل بعض الأولاد المشاكسين!

«يبدو قادراً على تلفيق أي شيء، حتى التفاصيل... وهذه الصفة

من سمات طباعه التي تعيننا على تصنيف حالته..

«وفي الأثناء يقال له إن الجاني قد اعتقل... وإني القاتل!... ويطلق سراحه.. ويقرأ فيما بعد أن القاتل قد انتحر بعد الإدلاء باعترافاته...

«فهل يفطن الى أن الأمر مجرّد شَرك؟.. ليس تماماً.. إلاّ أنّ شيئاً ما يدفعه، بأية حال، الى التخلّص من كلّ الأدلّة التي قد تؤكّد جرمه... ولذلك فبركت هذه المسرحية السخيفة التي تبدو صبيانية بعض الشيء...

«لقد اهتديت الى وسيلتين لدفع دلفوس الى الاعتراف الوسيلة الأولى هي تلك التي استخدمتها، أمّا الثانية فتقتصر على تركه وحيداً، لساعاتٍ، بمفرده في العتمة الكاملة التي يخافها كما يخاف الوحدة...

«وكانت تلك الوسيلة كافية لدفعه الى الاعتراف بكلّ الحقيقة، وربّما ما هو أكثر من الحقيقة...

«لقد أدركت أنه الجاني منذ أن ثبت لدينا أنّ الألفي فرنك لم تسرق من متجر الشوكولا. ومنذ ذلك الحين جاءت الوقائع وتصرّفاته لتؤكد لي ظنوني...

«إنها حالة عادية، برغم ما تبدو عليه من قتامة وتعقيد.

«ولكن كان علي أن أفهم جيّداً الحالة الأخرى، حالة غرافوبولوس... وبالتالي احتمال أن يكون هناك جناة آخرون...

«إن الاعلان عن موت القاتل، عن موتي أنا، قد أخرجهم جميعاً من مخابئهم...

«فجاء دلفوس للتخلّص من المحفظة التي تدينه...

«وجاء ڤيكتور لإحضار...»

ثم أجال ميغريه بصره في الأرجاء ناظراً الى كلٍّ من الحضور بتمعّن.

ـ «أديل، منذ متى يستخدم جينارو منزلك لإخفاء وثائقه الخطيرة؟».

فهزّت كتفيها بلا مبالاة، كأنّها تتوقع حلول الكارثة منذ وقت طويل.

ـ «منذ سنوات عديدة!، فهو الذي تدبّر أمر مجيئي من باريس حيث كنتُ أتضوّر جوعاً...

ـ «أتعترف بذلك يا جينارو؟».

ـ «لن أُجيب إلّا بحضور محاميّ».

ـ «أنت أيضاً؟... مثل ڤيكتور؟...».

كان السيد دلفوس يلزم الصمت مُطرقاً، عيناه لا تفارقان العصا التي قتلت غرافوبولوس.

ـ «إن ابني لا يعتبر مسؤولاً عن أفعاله...» تمتم فجأةً.

ـ «أعلم!».

فنظر اليه السيد دلفوس نظرات ارتباك وضيقٍ في وقتٍ معاً.

ـ «من أخبرك؟».

ـ «هلاّ نظرت الى وجهك ووجهه في المرآة!».

*

* *

وقُضيَ الأمـر! بعـد انقضاء ثلاثة أشهر كان ميغريه في منزله القـائم في جادة ريشـار لو نوار في باريس، يقلّب الرسـائل التي أحضرتها له حارسة المبنى

ـ «رسائل مهمّة؟» سألت السيّدة ميغريه وقد انهمكت بنفضِ احدى السجّادات عند النافذة.

ـ «بطاقة بريدية من شقيقتك تخبرك فيها أنها سترزق مولوداً...».

ـ «مرّة أخرى!».

ـ «وطرد بريدي من بلجيكا...».

ـ «وماذا يحتوي؟».

ـ «مـا من شيء مهمّ... انـه من صديق: الكـوميسير دلفيني ويحتوي على غليون ورسالة تطلعني على بعض الأحكام...».

وقرا بصوتٍ عالٍ:

«... جينارو، خمسة أعوام في الأشغال الشاقة، فيكتور ثلاثة اعوام، اما الفتاة أديل فقد أخلي سبيلها لغياب الأدلّة الجرمية...».

«من هم هؤلاء النـاس؟...» قالت السيّـدة ميغريه التي، وإن كانت زوجـة كوميسير في الشرطة القضائية، حافظت على قدرٍ من سذاجتها الريفيّة الفرنسية.

«من هم هؤلاء الناس؟...» قالت السيّدة ميغريه التي، وإن كانت زوجة كوميسير في الشرطة القضائية، حافظت على قدرٍ من سذاجتها الريفيّة الفرنسية

ـ «غير مهمّ! أناس يديرون ملهى ليلياً في لييج: علبة ليلية لا يرتادها أحد إلّا أنها كانت تستخدم كوكرٍ لعمليات تجسس...

ـ «وماذا عن الفتاة، أديل؟»

ـ «إنها راقصة الملهى... شأنها شأن الراقصات...».

ـ «وهل عرفتها؟».

وبدت نبرتها مشوبة بشيءٍ من الغيرة.

ـ «لقد قصدت الملهى حيث تعمل مرّة واحدة!»

ـ «أرأيت! أرأيت!».

ـ «ما بالك تتكلمين كالسيد دلفيني! لقد ذهبت اليها برفقة نصف دزينة من الرجال».

ـ «أهي جميلة؟».

ـ «لا بأس بها! لقد عرفت شابين من عشاقها».

ـ «الشبّان فقط؟...».

فتح ميغريه رسالة أخرى تحمل طابعاً بلجيكياً.

ـ «هذه صورة أحدهما». قال.

وناولها صورة فتى هزيل القامة ضامر الجسم يرتدي بزّة عسكرية. وفي الخلفية مدخنة مركبٍ ضخم.

«... وأرفق رسالتي بصورة لإبني الذي غادر آنفير هذا

الأسبوع على متن «اليزابيثفيل» في اتجاه الكونغو. وارجو أن تكون حياة المستعمرات الشاقة عوناً له...».

ـ «من هـذا؟».

ـ «أحد عشاق أديل!».

ـ «وهل اقترف ذنباً ما؟»

ـ «لقـد احتسى بضـع كؤوس من البـورتو في حانة ليلية كان الأحرى به أن يمتنع عن ارتيادها».

ـ «وكانت عشيقته؟».

ـ «لا، على الإطلاق! لم ينل منها أكثر من استراق النظر اليها خلسةً وهي ترتدي ملابسها...».

وعندئذ خلصت السيدة ميغريه الى القول:

ـ «الرجال هم الرجال أينما كانوا!».

*

* *

تحت رزمة الرسائل لمح ميغريه مغلّفاً شطبت زواياه بخطوط سوداء.

«في هذا اليوم، تقام مراسيم دفن المرحوم رينه جوزيف آرثور دلفوس الذي توفي عن ثمانية عشر عاماً، في مصحّة سانت روزالي...

ومصحة سانت روزالي مخصصة لاستقبال مرضى الدماغ من الأثرياء..

وفي ذيل الورقة، ثلاث كلمات:

[صلّوا لأجله]

وطالعت ميغريه صورة السيد دلفوس، الأب، وزوجته ومصنعه وعشيقاته.

ثمّ صورة غرافوبولوس الذي أراد أن يصبح جاسوساً لأنه كان مجرّد عاطل عن العمل ولأن صورة الجاسوس استهوته كما ترسمها الروايات المسليّة.

بعد ذلك بثمانية أيام، رأى في احدى العلب الليلية في مونمارتر امرأةً تجلس الى طاولة وأمامها كأس فارغة، وبادرته بابتسامة.

كانت أديل.

ـ «اقسم لك أنني كنت أجهل تماماً ماذا يفعلون... كان عليَّ أن أكسب عيشي، أليس كذلك؟...».

وبالطبع، كانت مستعدة للعيش بأي ثمن مجدّداً.

ـ «لقد تلقيت صورة الفتى... انت تعرفه جيّداً... الفتى الذي كان موظفاً في مكتبٍ ما...».

وسحبت من حقيبتها البيضاء صورة. هي نفسها التي تلقاها ميغريه! صبيّ هزيل القامة ضامرها يرتدي بزّة عسكرية ويعتمر، لأوّل مرّة، خوذة الوحدات العاملة في المستعمرات.

ولا بدّ أن هناك نسخة ثالثة من الصورة تناقلتها أيدي المستأجرين، في شارع لا لوا، الطالبة البولندية والسيّد بوغدانوفسكي.

ـ «يبدو رجلاً في ملابسه العسكرية، أليس كذلك؟...» رجائي أن ينجو من أنواعِ الحمّى هناك!...».

وشبّان آخرون في الغيه مولان الذي أصبح يديره مالكٌ آخر!











عثر عند درج قبو ملهى «الغي مولان» في مدينة لياج في بلجيكا على عقبي سيجارة. وآثار اقدام وجثة رجل غريب، سرقت منه محفظته وعلبة سجائره الذهبية.

هذا الملهى كان يرتاده شابان من ابناء الذوات، واحد يسرق اموال انسبائه والآخر يستدين من صندوق «النثريات» في شركة لينفقا على ملذاتهما وقد ادى ارتباكهما الدائم الى إثارة الشبهة حولهما فاتهما بقتل الرجل الغريب.

المحقق ميغريه كعادته يتدخل، بعد سجن الشابين ويكشف عن المجرم الحقيقي.



1855131846